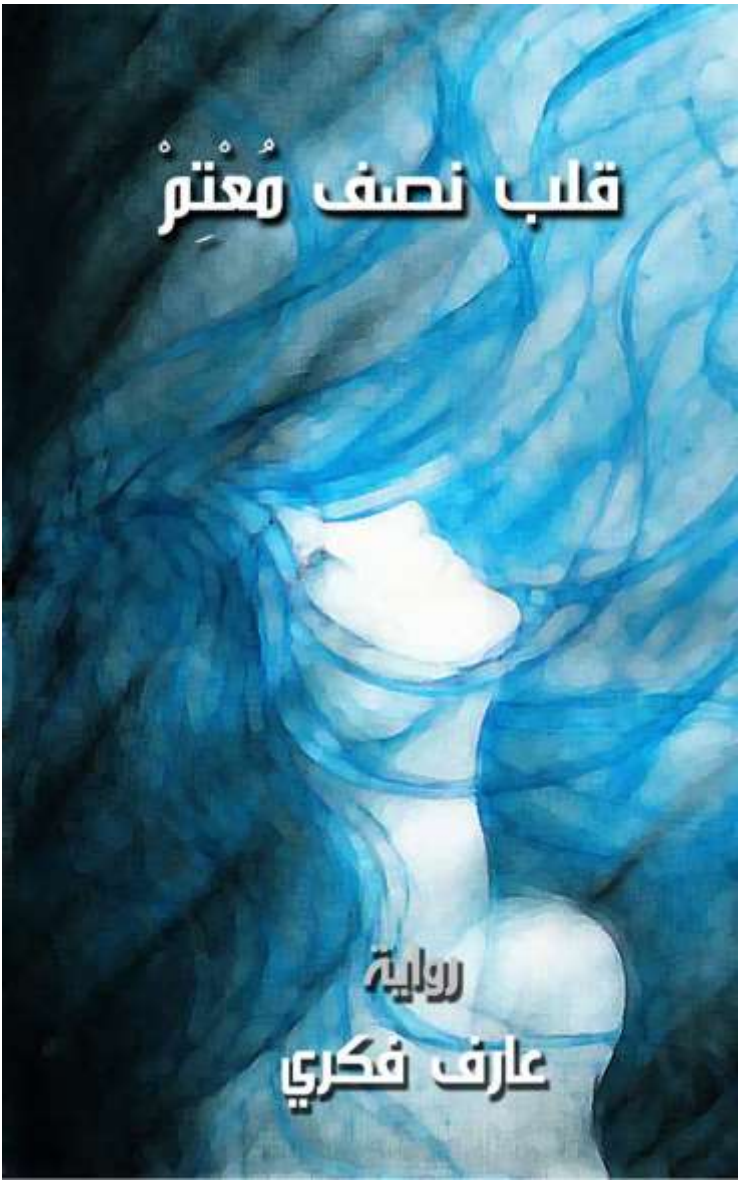
قلب نصف مُعْتِمْ
رواية
عارف فكري

قلب نصف مُعْتِم

رواية

عارف فكري

الجزء الأول

الفصل الأول

استيقظتْ في ذلك الصباح البارد بمزاج منحرف، وشعرٍ مبعثر، وهي تغرس أصابعها فيه، حتى وصلتْ للقاع، تتثاءب، تتساءل عن هُوِّيتها. مرَّتْ بتلك اللحظة الشهيرة التي لا تعرف فيها اسمها، أو حقيقتها. لقد وجِدتْ لتوِّها الآن. ثم راحت الذكريات تتدفق ببطء، تتسارع، تعيد تخليق شخصيتها من جديد.

راحتْ تراجع جدولها اليومي في ذهنها. هناك الكثير من الضباب، عدم التركيز. تُحدِّق إلى السقف.

"هل خُلقت القلوب من أجل أن نعيش فقط، أم من أجل أن نعيش ونحب؟"

تكره أن تترك نفسها لتلك الخواطر المرهقة، والتي تكاد تسحقها تحت وطأتها.

تقول أمها، وهي تضع بعضًا من زيت الزيتون فوق الفول الساخن:

"الحبُّ لا يأتي طارقًا الباب. لابد أن تبحثي أنتِ عنه."

قالتْ بتعاسة، وهي تتأمل تلك الحبوب الصغيرة بالقرب من ذقنها، في مرآة وجدتها على منضدة المطبخ:

"هل تريدين مني الخروج، والبحث عن زوج المستقبل في الشوارع كالمجنونة؟"

قالت أمها:

"لم أقل هذا، لكن الفتاة الذكية هي من تنتبه جيدًا لما يحدث حولها"

"آه. فهمت. تريدينني أن أُحدِّق بعينيِّ بحثًا عنه في وجوه من أقابلهم من رجال."

هزّتْ أمها كتفيها بحركة أثارت ضيقها:

"وما المانع؟ لقد أوقعتُ أبيكِ في شباكي بنفس الطريقة."

"حسنًا، أنا لا أملك نصف ذكاءك."

قالت وهي تتنهد بحسرة:

"أعلم يا بنيتي. أعلم."

والتفتت إليها، وعلى وجهها ابتسامة أمل:

"لكن عليكِ أن تحاولي؛ فالمستحيل يمكن أن يحدث."

"أن أكون ذكية مثلك؟"

قالت بإشفاق:

"لا يا حبيبتي. بل أن تجدي من تبحثي عنه بالفعل"

تقول متمتمة بغيظ لم يظهر بالكاد في صوتها:

"أنتِ تبهجين يومي يا أماه."

"ما هي وظيفة الأمهات إذن؟"

همَّتْ بأن تقول جملة لاذعة، ثم وجدتْ أنها ستدخل في جدل بيزنطي لن ينتهي؛ فآثرت السلامة والانسحاب.

قالت وهي تناديها:

"ألن تفطري؟"

قالت، وهي تلوِّح بيدها:

"لقد تأخرتُ على نهى."

***

نهى العزيزة كانت تنتظر هناك؛ حيث كانتا تتقابلان دائمًا في تلك الحديقة القريبة من منزلها. تجلس على المقعد الخشبي، في يديها هاتفها المحمول، بينما حقيبتها ذات اللون الوردي تستقر بجوارها. ما أن رأتها حتى رفعتْ يدها ملوِّحة.

"هيه. هدير."

نهى العزيزة التي تحمل في صدرها قلبًا أبيض، يدعمه تعامل فطري طبيعي جدًا لا يخضع لقوانين التكلف. لكن هذا- تعترف بينها وبين نفسها-أوقعها في مشاكل لا تُحصى، خرجتا منها بصعوبة.

ذات مرة كانتا تتسوقان بعض الثياب؛ فولجت نهى لمكتب المدير، وراحتْ تتحدث بتؤدة عن بعض العيوب التي لاحظتها في المكان. الحقّ أن المدير كان متسامحًا، وهو يهزُّ رأسه بأدب، بل وقام مشكورًا بجلب كأس من العصير لها من الثلاجة التي تستقر بجواره.

راحت نهى تتكلم بعفوية، ثم انتقلت لأصحاب المتاجر من ذوي الضمائر الخربة، والقلوب الميتة، والمدير يوافقها وهو يمصمص شفتيه متأسفًا، ويبدو أن نهى نسيتْ الوقت، ونسيتْ وجود صديقتها بالخارج، والتي كانت تبحث عنها في تلك اللحظة، وهي تشتمها في سرِّها.

ثم تطوَّر الأمر-بالنسبة إلى نهى-لأن تتحدث عن مشاكلها الشخصية، ثم ركزّت على قصة ذلك الشاب الذي أحبته، فتركها بسبب أنها ثرثارة، إذ أنها عندما تفتح فمها لا يمكن غلقه أبدًا.

وقالت بصوت مختنق، وعينين مملوءتين دمعًا للمدير:

"أأنا ثرثارة؟"

ناولها المدير منديلًا ورقيًا، وهو يقول مسرعًا:

"بالطبع لا. إنه شاب أحمق."

"هذا هو رأيي أيضًا. أمفففف."

كانت في هذه اللحظة تتمخط في المنديل، وقد استحال أنفها لشيء أحمر يليق بالأطفال الرُضَّع.

هذه هي رواية نهى لها، وهي تحكي ما حدث، لكن للمدير قصة أخرى مختلفة قليلًا، رواها لها بوجه منفعل غاضب، وخلاصتها أنها دخلت مكتبه، وراحت تتحدث بعصبية، وقد كان مهذبًا معها أول خمس دقائق، ثم سرعان ما راح يتململ، وينظر في بعض الأوراق أمامه، باعثًا رسائله الخفية المؤكدة

لانشغاله، وأن ليس لديه وقتًا لذلك الهراء، لكن الفتاة المتحمسة لم تفهم؛ وهكذا فقد راحت تتحدث لأكثر من ساعة ونصف.

ثم أخبرها بقراره:

"صديقتكِ ممنوعة من دخول هذا المكان."

"ممنوعة؟ كم يومًا؟"

تجمَّد للحظة، وكأنه يبحث عن رقم مناسب، ثم قال وهو يلوِّح بيده:

"للأبد."

وطبعًا لم تقل لنهى ما حدث، بل كانت تؤكد على خُلق المدير الرفيع؛ فهي لا تريد أن يُضاف اسمه لرفِّ الحكايات التي تُسبِّبْ البكاء لها.

لكنها كانت منتعشة ذلك الصباح. وجهها مشرق على غير العادة، ولمع جمالها أكثر، مما جعلها تتوجس.

أي كارثة هي مقبلة عليها؟

***

في ذلك المقهى جلستا تحتسيان الكاكاو، وهي تحرك يديها في رشاقة، وكأن في عقلها سيمفونية موسيقية تعزف بنعومة.

لقد جُنّت الفتاة.

كان هذا متوقعًا على كل حال.

راحت تتفقد المكان ببصرها. لو كانت أمها معها سيخطر ببالها أنها تنفِّذ وصاياها الحكيمة بخصوص حبيب القلب. تتوقف

عيناها عند رجل يجلس في زاوية المقهى. في الواقع كان يجلس في ركن شبه مظلم لا يُظهر شيئًا من ملامحه، وهو يحتسي قهوته بثبات مستفز. لم يظهر هذا الهدوء على وجهه المعتم، بل ظهر في ثبات يديه، وحركته الرتيبة في تحريكها، وكأنه يضع كل تركيزه في ارتشاف قهوته بشكل منتظم.

غريبة.

"لقد أحببتُ!"

صرخت بها نهى بحماس، وهي تلوِّح بيدها، وقد فاضت بها مشاعرها؛ فلم تحتمل أن تحتفظ بطوفان السعادة الذي يرقص في عروقها.

قالت بحرج، وهي تتأمل وجهها المحمر من الانفعال:

"اخفضي صوتك يا حمقاء. ستفضحيننا."

هزّتْ رأسها بهيام:

"أنتِ لم تجربي الحبّ من قبل."

للأسف هي محقة.

سألتها وهي تتنهد، متوقعة أن تستمع لقصة جديدة من قصص صديقتها التي لا تنتهي:

"من هو؟"

قالت، وكلماتها تتلاحق كطلقات الرصاص:

"رأيته في المكتبة. أنتِ تعلمين أنني أذهب دومًا للمكتبة لاستعارة روايات رومانسية. اتجهتُ للرفِّ المخصص لتلك

النوعية من الكتب، وهناك وجدته يقف يقلب في صفحات رواية ما"

قالت:

"يُقلِّبْ في رواية رومانسية؟"

ضربتْ كفًّا بكف:

"لقد كنتُ مندهشة مثلك يا هدير. منذ متى نري شابًا يقرأ روايات رومانسية؟ إنهم مشغولون بقراءة كتب الرعب والمغامرة."

قالت مؤمنة على كلامها:

"والسخرية من أحلامنا ورومانسيتنا."

"هو كما تقولين. لذا فلكِ أن تتصوري دهشتي، وأنا أقترب منه في بطء حذر"

"لابد أنه ظنك مجنونة."

ضحكتْ:

"أبدًا. لقد قال على الفور" *أعلم أنه من الغريب أن تجدي شابًا يقرأ في روايات رومانسية.*" وطبعًا هززتُ رأسي دون أن أنطق بحرف"

"معقولة. هل استطاع ذلك الشاب أن يُخرسك؟"

"إنه مدهش."

قالت موافقة:

"ما دام فعل ذلك فهو مدهش بكل تأكيد. وماذا فعلتِ بعدها؟"

"راح يتكلم ويثرثر حتى أنه لم يترك لي فرصة لأتكلم."

قالت في سرِّها فيما معناه: "أنه عظيم."

ورأتْ عصفورين ملونين يحلقان في كرتي عينيها:

"لقد ظلّ يتحدث، وأنا أستمع إليه. هل تعرفين عندما ترسمين صورة معينة لفارس أحلامك، وبشكل ما أنتِ تدركين أنه موجود في ركن ما. قد يكون ركنًا مظلمًا مجهول الملامح، لكنه موجود."

رمقتها بدهشة، وهي ترتد ببصرها لصاحب الوجه المعتم؛ فلم تجده.

قالت نهى بثقة:

"لقد وجدته يا هدير. وجدته."

ونهضت من مقعدها، وراحت ترقص رقصة إسبانية تحبها، أمام الجالسين؛ حيث ابتسم البعض، بينما هزَّ بعض العجائز رءوسهم في وقار، وهم يلوون شفاههم عن الانحلال الذي أصاب بنات هذا الجيل.

شعرتْ بالحرج الشديد من الموقف؛ فنهضتْ مسرعة نحو الباب متجاهلة نداء نهى لها.

***

في ساعة متأخرة في ذلك اليوم رنَّ هاتفها المحمول. رقم محجوب؛ مما جعلها تشعر بالقلق.

"مساء الخير يا آنسة هدير."

"مساء النور. من معي؟"

"لقد تقابلنا اليوم في المقهى"

"أنت من كنتَ تجلس في ركن مظلم؟"

"أنا"

"كيف عرفت رقم هاتفي؟"

"هذا ليس هو السؤال الصحيح"

قالت، والخواطر تتزاحم في طابور طويل في عقلها:

"وما هو السؤال الصحيح؟"

بعد لحظة صمت:

"السؤال الصحيح هو: مَنْ الذي يوجد في الحجرة رقم صفر؟"

***

صباح اليوم التالي استيقظتْ مبلبلة الفكر، وعندما نظرتْ في المرآة وجدتْ تلك الهالات السوداء، وبعض الانتفاخات تحت عينيها. لابد أنه الأرق، وهي تدور في حجرتها كالمجنونة تتذكر تفاصيل المكالمة التي راحت تُعاد في ذهنها عدة مرات.

الغموض. الغموض. من يحب الغموض؟ ما أن رأتها أمها حتى شهقتْ، وضربت صدرها بيدها:

"هدير. مالك؟"

قالت وهي تجلس:

"لم أنم إلا بعد الفجر بقليل."

قالت بلوم:

"لابد أنكِ سهرتِ أمام الفيس كعادتك."

دمدمتْ بضيق:

"ليس من عادتي السهر وأنت تعلمين هذا."

همهمت أمها بكلمات غامضة؛ فقالت بعصبية:

"ماذا تقولين؟"

"أقول لنفسي بأنكِ لو كنت تفعلين؛ فربما حصلتِ على عريس من الفيس. جارتنا أم هيام ابنتها جاءها عريس بهذه الطريقة."

نهضتْ، وهي تتجه للباب دون أن تنبس بكلمة.

***

كررت سؤالها:

"أأنت متأكد أنك لم تر وجهه يا جميل؟"

"كما أخبرتك يا آنسة هدير. لقد كنتُ أدور على الزبائن كعادتي عندما وجدته يشير إليَّ بيده، وطلب قهوة مضبوطة"

"لم تجب على سؤالي؛ هل أنت متأكد بأنك لم تر وجهه؟"

قال بلهجة مترددة:

"أجل، لكن."

"لكن ماذا؟"

"شيء ما فيه جمّد الدم في عروقي."

بعصبية قالت:

"ما هذا الكلام الفارغ يا جميل. ألا تخجل من قولك هذا، وأنت طول بعرض؟"

قال بصوت هامس، وعيناه تدوران في محجريهما:

"أنا لا أخاف عادة يا آنسة. ضعيني في أي مشاجرة، وسأحوّل من يواجهني لكفتة. لكن ذلك الرجل كان مخيفًا. شيء ما في نبرة صوته الجليدي، أو في حركة يديه، أو جلسته الثابتة دون أن يتحرك."

"غريبة."

"شيء آخر يا آنسة"

وأشار نحو الركن الخالي:

"صحيح أن هذا الركن معتم قليلًا بسبب توزيع مصابيح الإضاءة، لكن ليس لدرجة إخفاء الوجه تمامًا."

"ولم يثر هذا فضولك؟ ألم تحاول جذبه لمنطقة الضوء؟ كما أنه من المفترض أنك رأيته بعد أن دفع الحساب."

"لم أره وهو ينصرف. لقد ترك ورقة بخمسين جنيه بجوار فنجان القهوة."

لم تخرج من حوارها مع جميل إلا بالمزيد من الحيرة والتساؤلات بالنسبة لها، وسعادته بالبقشيش الكبير.

***

خرجتْ من المقهى، وأشارتْ لسيارة أجرة؛ فتوقفت واحدة أمامها. دخلتْ بدون تفكير، وهي تستعيد تفاصيل حوارها معه في الليلة السابقة. لقد توقفتْ لحظة، تحاول استيعاب الموقف. عم يتحدث، وأي حجرة هذه التي تحمل الرقم صفر؟

لقد صمتّت قليلًا؛ ريثما تُرتِّبْ أفكارها المبعثرة:

"لا أفهم."

"بل تفهمين، لكن لابد من أن تُدخلي نفسك في دائرة الأسئلة الفارغة، التي لن تخرجي منها بنتيجة."

"من أنت يا هذا. هل هذه طريقة جديدة في المعاكسات؟"

ضحك ضحكة بلورية:

"أؤكد لكِ أن الأمر لا يتعلق بالتغزل في جمالك؛ وإن كان هذا من الممكن أن يُسعد أمك جدًا؛ فهذا في رأيها أول خطوة لكي يقع رجل في شباك امرأة."

انتصبت أذناها، واعتدلت في جلستها على السرير.

"كيف. كيف علمت؟"

تراه بعين خيالها وهو يهزّ كتفه في ركنه الأبدي المظلم، وهو يقول:

"أنا أقرب إليكِ مما تتصورين يا هدير."

"قريب مني؟ لكن صوتك غير مألوف؟"

هل هي نبرة خُبث في صوته، وهو يقول:

"حقًا؟"

"لا تجعل ضغط دمي يرتفع. أنت تتصل بي في ساعة متأخرة، ومن رقم محجوب لتتحدث بالألغاز؟"

"اعتبريها محاولة لتلطيف جوّ الملل الذي تغرقين فيه حتى أذنيكِ. حقًا لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب."

لم تستطع النطق بكلمة. حائرة، تبحث عن إجابات تعرف أنها لن تجدها. إنها من تلك اللحظات التي تتغير فيها حياة المرء.

ربما هي خدعة سخيفة، مقلب سمج من أحدهم يعرف مللها، ويريد أن يضفي جوًّا من الإثارة على حياتها. حقًا لو عرفتْ شخصيته وقابلته فسيكون أول ردّ فعل منها هو أن تُمزّقه بأسنانها.

"الآن أنصتي إلى جيدًا. أريد تكليفك بمهمة"

انتبهتْ، وقالت ببطء:

"مهمة؟"

"مهمة ربما لو نفذتها فستجدين ما تبحثين عنه."

"ما أبحث عنه؟"

هنا أغلق الهاتف في وجهها، وقد أدرك بأنه قد أعطاها الكثير من المعلومات.

دمدمتْ بغيظ:

"الوغد."

انتبهتْ من أفكارها على صوت مزعج لأحد السائقين.

كانت تمرُّ في تلك اللحظة بالكورنيش. النيل أمامها تتحرك صفحته بهدوء، وثمة نسيم منعش بارد يتسرب لرئتيها من النافذة المفتوحة، ثم تنبهتُ أنه ليس الطريق المعتاد الذي تسير فيه عادة.

"لماذا أخذت هذا الطريق يا أسطي؟"

لم تلمح إلا ابتسامته السمجة في المرآة الصغيرة أمامه، وهو يقول:

"أعتذر أولًا عن إغلاقي الهاتف في وجهكِ؛ لكنها الطريقة الوحيدة لكي تفهمي ما يحدث بشكل عملي."

صرختْ بانفعال جارف:

"أنت."

هنا أدار مقود السيارة نحو النيل، وحطم جزءًا من الحاجز الخرساني المشبع بالرطوبة؛ لتجد نفسها تهوي نحو الماء، وصرخاتها تجلجل في الفراغ.

***

الفصل الثاني

ضباب، تشويش. ضباب، تشويش. يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد فيما يبدو، لكن وجه أمها الغارق في الدموع اقتحم مجال رؤيتها؛ فجعل الأمور تتضح نوعًا.

كانت في المستشفى، راقدة في فراشها الأبيض، ويجلس أبوها بجوارها، بينما أمها تمنع نفسها من أن ترمي بجسدها في حضنها.

سألتْ بصوت واهن.

"ماذا حدث؟"

قال أبوها بقلق، وقسمات وجهه ترتاح أخيرًا من الشدِّ العصبي الذي كانت تعاني منه:

"لقد سقطتْ بك سيارة الأجرة في النيل."

"ذلك السائق المجنون؛ لقد..."

لم تُكملْ الجملة وهي تسعل بقوة؛ مما جعل أمها تقترب منها، وهي تريحها في جلستها للخلف، بينما والدها يصبّ بعض الماء من دورق موجود على الكومود بجوارها، ويقربه من فمها.

ارتشفتْ بعضًا منه، وأغمضتْ عينيها؛ ليقفز مشهد السقوط إلى ذهنها حيًّا؛ الكثير من الصراخ، الكثير من الرعب، ثم

الكثير من الماء. تجمَّد المشهد، وأمكنها أن ترى تفاصيل حياتها تمرّ أمامها في سرعة غريبة.

ثم غاب كل شيء في الظلام. صحيح أنها لا تتذكر الآن أي شيء من تلك التفاصيل، لكن ثمة انطباعًا أن حياتها مرّت بالفعل أمام عينيها الزائغتين، وإن كانت غارقة في عتمة عجيبة متماوجة.

ما عرفته أن بعض الشباب الشهم نزع ثيابه وقفز في النيل بغية إنقاذها؛ هي وذلك المعتوه. وبينما كان العثور عليها سهلًا؛ فإن السائق لم يجدوه.

"لقد بحثوا في كل بقعة بالقرب من موقع السقوط في الماء، لكنهم لم يجدوه."

قالها أبوها، وهو يقلِّب كفيّه بحيرة. بينما هتفت أمها بغلّ:

"إنه يستحقّ. مثله سيسعد السمك جدًا بالتهامه."

قلب أبوها شفتيه بضيق؛ من تعليقها.

لحظة صمت غير مريحة. الصمت نفسه له صوت.

"هذه المستشفى شبه خالية."

قالتها أمها، وهو توجه كلامها لأبيها؛ فأومأ برأسه مفسرًا:

"إنها مستشفى حديثة جدًا. المرضى هنا قليلون للغاية، يُعدّون على أصابع اليد الواحدة."

قالتْ أمها بتشكك لم تدر سببه:

"وهل هذا طبيعي؟"

هزَّ رأسه بحيرة، بينما قالت وهي تمسح الممر الخالي ببصرها:

"أين نهى؟"

قالت أمها:

"المسكينة ظلت ملازمة لكِ أكثر من ثلاث ساعات، ثم أمرتها بالعودة للمنزل لتستريح. سأتصل بها. ستسعد جدًا بإفاقتك"

وأخرجتْ هاتفها المحمول من حقيبتها، وخرجت للممرّ، بينما اقترب منها أبوها، وقال هامسًا وهو يبتسم:

"كدتِ تقتلينا من القلق."

ابتسمتْ دون أن تجيب؛ ففي موقف كهذا تكون الهمهمة الغامضة غير المفهومة ردًا مقنعًا للغاية.

ثم تحولت ملامحه للجدية، وهو يتمتم:

"ألن تخبريني بما حدث حقيقة؟"

هربتْ من عينيه الواسعتين النفاذتين:

"أخبرتك يا أبي أنه سائق مجنون."

لم يضغط عليها. ربت على كتفها فقط، وتراجع في مقعده، دون أن يرفع عينيه عنها. شعرتْ بحرج، وهي تحاول الهرب منه. دخلت أمها وهي تبدو مرتبكة، وفي يدها هاتفها المحمول.

سألها أبوها بوجه قلق:

"ما الأمر؟"

ابتسامة مرتبكة على شفتيها:

"تلقيتُ اتصالًا من رقم محجوب. شخصٌ ما يريد الحديث إليكِ يا هدير. لا أعرف كيف أتي برقمي. هل أعطيته إياه؟"

خُيِّل إليهما أنها قفزتْ نحو اليد الممسكة بالهاتف بعصبية، حتى كادتْ تُحطِّمُه برغم وهنها، ودمدمت بغيظ:

"لم أفعل. لكنه يعرف أرقامنا جميعًا فيما يبدو."

يقول أبوها بعصبية:

"من؟ أفصحي."

"ذلك المختل الذي قفز بالسيارة في النيل."

وثبَ أبوها من مقعده، بينما وضعت أمها يدها على فمها لتمنع شهقة ارتياع، أما هي فقد كانت ثائرة بحق.

"أيها المختلُّ المجنون، الـ.."

كانت غاضبة، ولسانها يتدفق بسيل محترم من الشتائم لو جاز التعبير، حتى أن وجهي والديها قد احمرَّا خجلًا؛ فلابد أنهما قد تساءلا إن كان السقوط في النيل تسبب في عدم اتزانها العقلي، أم أنها كذلك بالفعل وهما لا يعلمان؟ الاحتمال الأول سيء، والاحتمال الثاني كارثيّ.

أتاها الصوت العميق، الهادئ؛ كما لو أن صاحبه يتربع على الجليد فوق الهيمالايا، مستجلبًا سكون الأبدية:

"اهدئي. أنتِ على قيد الحياة كما أرى"

"لقد كدتُ ألقي حتفي أيها السايكوباثي!"

"من حسن الحظّ أنه لم يحدث إذن. حاولي أن تخرجي من حالة الغضب هذه، وركزّي في المهمة التي أوكلتها إليكِ."

"مهمة؟ أي مهمة أيها المعتوه؟"

تراه مرة أخرى بعين الخيال يبتسم بإشفاق:

"واطفلتي العزيزة. أنتِ لم تفهمي بعد. أنا أريدكِ في المكان الذي أنتِ فيه الآن. تذكري أن الحجرة رقم صفر، قد تدلك على أول خيط يقودك لهدفكِ"

ثم صوت ***كليك***.

الوغد!

"هل يمكن أن تخبريني بما يحدث بالضبط؟"

قالها والدها بعصبية. روتْ ما حدث؛ مما جعل أمها تقول بغيظ:

"ولم تخبرينا كل هذا الوقت."

قالت بضيق:

" ماذا تريدينني أن أقول؟ هناك أحد الحمقى الغامضين يقوم بالتحدث لي من رقم مجهول. ستقولين لي بأنه مشروع عريس، ويجب أن أهتم به."

بدا عليها الحرج، بينما أبوها يرمق أمها بنظرة نارية.

هدأت ملامح الأب قليلًا ثم قال:

"سيكون كل شيء على ما يرام يا بنيتي. فلنطمئن عليكِ أولًا، ثم نناقش هذه الأمور بشفافية ووضوح"

جملة أبيها الأثيرة لديه، والتي لا يتغير أي شيء بعدها. هزَّتْ رأسها بحركة ميكانيكية كما تعودت، ثم قالت أمها:

"سنتركِ ترتاحين قليلًا، وسيحضر والدك لنا طعام الغذاء"

وألقتْ نظرة صامتة على زوجها؛ الذي نهض قائلًا:

"بالتأكيد. هناك مطعم جيد في مواجهة المستشفى"

"هل سأمكث هنا طويلًا؟"

قالت أمها، وهي ترمق أبيها الذي يهمّ بالمغادرة:

" اليوم فقط للملاحظة"

"عظيم."

غادرا الحجرة معًا، بينما أغمضتْ هي عينيها، والأفكار تعود متدفقة بعنفوانها.

***

حضرتْ نهى أخيرًا. يبدو أن اتصال أمها كان في وقت غير مناسب بالنسبة لها. خمَّنتْ هذا عندما رأتها تمسك بوردة صفراء تشُمَّها في هيام، وهي تنقل خطواتها بطريقة تشبه طريقة عارضات الأزياء، وهي علامة تؤكد أنها سعيدة جدًا.

همستْ:

"لقد قابلته. قابلته."

قالت هدير بإحباط، وهي تشعر بصداع يدّق رأسها بقوة، وكأنما يطلب الإذن بالدخول:

"حقًا؟"

جلستْ على طرف سريرها، وقالت بسرعة؛ كعادتها كلما غلبها الانفعال:

"اسمه ماجد، اسم موسيقي، يدلّ على البأس والقوة. ساعدني على انتقاء بعض الروايات الرومانسية الجدية. لقد ذهلتُ عندما وجدتُ أنه يحفظ مقاطع كاملة من حوارات رومانسية، بل وسالتْ دمعتان من عينيه أمامي."

التعب يمنعها من أن تُركِّبْ وجه التعاطف والانبهار كعادتها، لكن هذا لم يمنع أن تُولد ابتسامة شاحبة على شفتيها.

سألتها نهى بقلق، وقد بدأت تفيق قليلًا من طوفان قوس قزح الذي يعصف بكيانها:

"هل أنتِ بخير؟"

تمتمت بوهن:

"لاحظي أنني خارجة من حادث كارثيّ كاد أن يودي بحياتي.".

"أعلم. يقولون في مثل هذه الظروف أن المرء قد كُتبَ له عمرًا جديدًا. بالمناسبة لقد أمسكوا بسائق السيارة."

"ماذا؟"

هتفتْ، وهي تعتدل في فراشها.

"متى حدث هذا؟"

"من ساعات قليلة. أبي يتابع الموضوع باهتمام"

سألتها:

"وماذا قال؟"

"أبي؟"

"السائق يا حمقاء."

"لقد أنكر. قال بأن سيارته أُخذت من أمام بيته، وأنه عمل محضرًا بخصوص سرقتها"

قالت بقنوط:

"طبيعي. الوغد لن يقع في خطأ كهذا، بالإضافة أنه اتصل بي منذ قليل"

"أعلم. لقد اتصل بي أيضًا، وأخبرني أن كل شيء متعلق بالحجرة رقم صفر."

رمقتها بدهشة؛ فقالت وهي تشمّ الوردة بافتتان:

"من ذلك الرجل الغامض يا ترى؟"

قالت بشرود، وهي تداعب خصلة متدلية من شعرها بحركة عصبية:

"هذا هو السؤال الذي أبحث عن إجابته."

قالت بضيق:

"تبحثين عن إجابته. ما شأنك أنتِ وماجد؟"

هتفت فيها بغيظ:

"أقصد من اتصل بكِ من رقم محجوب."

"آها."

وبدت مرتبكة وهي تقول:

"كنتُ أظن.."

قاطعتها:

"أعدِّي نفسك الليلة؛ ستبيتين معي"

"لم؟"

" لنعرف حكاية الحجرة رقم صفر هذه."

قالتْ معترضة:

"لا. لن نفعل. إنه هذيان مجنون، ولن أسير وراءه"

***

كانت تستند على كتف نهى، والتي كانت أقصر منها قليلًا، وهي تقول ملوحة بيدها الحرّة:

"الحجرة رقم صفر. الحجرة رقم صفر. أي معتوه يسمي غرفة بهذا الاسم؟"

كانت تتكلم بصوت عالٍ كعادتها؛ فقالت بصوت هامس:

"نهى؛ لا تلفتي إلينا الأنظار بصوتك الجهوري يا حبيبتي."

"معذرة."

هبطتا للطابق الأرضي. ما دامت تحمل الرقم صفر فلابد أن البداية من أسفل إذن. ركبتا المصعد الذي هبط بهما، ومن حسن الحظ أن الحركة في الطابق الأرضي كانت قليلة بحكم تأخر الوقت، وإن كانت هدير قد لاحظتْ أن المستشفى هادئة إلى حدٍ مريب.

هناك روح من السكينة والهدوء تعبر ممراتها، وكأنها أشباح شفافة تتماوج مع الضوء الأبيض الشاحب.

كانت الساعة الواحدة صباحًا. ترمق وجه نهى بطرف عينها، وهما تجوسان كالظلال بحثًا عن الحجرة رقم صفر.

وصلتا لممر يضيئه مصباح واحد في أوله، ومصباح ثانٍ في آخره، وإن كان أقلّ ضوءًا؛ مما جعل الأشياء تلقي ظلالًا طويلة ممتدة على الأرضية؛ فبدت كما لو كانت وحوشًا أسطورية تحرس شيئًا ما.

يبدو أنهما قد وصلتا للحجرة رقم صفر.

***

وكانت الحجرة هناك. الحقيقة أنها لم تكن تحمل رقمًا أصلًا. مجرد لافتة قديمة عليها كتابة ممسوحة، وقد انحلّ مسماران من مساميرها الأربعة؛ فمالت بشكل مزرٍ كما لو أنها تعلن بأنها غير ذات أهمية أصلًا. بلعتْ هدير ريقها، وهي تهمس في أذن نهى:

"إنها هي."

"وكيف عرفتِ؟"

حقًا لا تعرف كيف عرفت.

لابد أن الأشخاص والأماكن يعطيان كاريزما خاصة بهما؛ فيمكنك أن تعرف فلانًا من بين آلاف الأشخاص.

هل هو حدس ما؟

ربما. ارتكزتْ بيديها على الباب، وهي تقترب بعينيها من الثقب الصغير الذي يتوسطه، ويخرج منه ضوء باهت، من الممكن أن يكون أي شيء.

وكما لو أنها قد انتقلتْ إلى القطب الشمالي بغتة؛ فقد سرتْ في جسدها قشعريرة جليدية هزّت كل مفصل من مفاصلها؛ فما رأته من خلال الثقب كان هو الهول ذاته.

***

الفصل الثالث

كان هناك سريران، وحولهما ستة رجال يرتدون المعاطف البيضاء، وهناك كمامات على أنوفهم، وثمة غطاء داكن يتدلى على وجوههم؛ فيخفي ملامحهم.

يسمون الأطباء ملائكة الرحمة، لكن تظن هؤلاء-برغم اللون الأبيض-زبانية العذاب. كانت إحداهما تئن. صدرها يعلو ويهبط في ألم مكتوم، أمكنها أن ترى العينين المذعورتين، والألم الذي يطفح منهما.

كانت تتألم، مع عدم القدرة على الصراخ. هذا هو الهول من وجهة نظرها؛ الألم الذي لا يجد طريقًا لكي يحلق بعيدًا، ولو حتى عن طريق الهمهمة.

"ماذا ترين؟"

هتفتْ نهى بجوارها، وهي تشبّ على أطراف أصابع رجليها فضولًا؛ لكي تعرف ما الذي يحدث بالداخل.

في تلك اللحظة رأتْ هدير أحدهم يستدير نحوها كأنما سمع السؤال. تراجعتْ برعب للخلف، تكاد تسقط أرضًا، تحاول السيطرة على توازنها.

قالت في سرِّها، وكأنها توصِّل إليه رسالة، وهو يقترب من الباب: أنا مريضة أيها الوغد، وكدتُ ألقي حتفي منذ ساعات.

للأسف القتلة عادة لا يقرأون الأفكار، ينساقون بحرية وراء غريزة التدمير، لا يضيعون وقتهم في تساؤلات فارغة من وجهة نظرهم؛ لهذا هم ناجحون، يصنعون مستقبلهم بسرعة، يعيشون بترف، بغضّ النظر عن الأشياء الأخرى؛ فهي لا تعنيهم، ولا يريدون الانخراط في جدليات حلزونية لن تجلب لهم أي نفع.

على سبيل المثال:

الوقت متأخر، بشكل ما لا تفهمه لا يوجد أحدٌ حولها ينقذها؛ هل ينفع الصراخ؟ ما كاد الخاطر يرد بذهنها، حتى رأتْ نهى تمسك بقائم خشبي لا تعرف من أين أتت به، تقف في العتمة، وهي تتأهب لارتكاب حماقة جديدة من حماقاتها. ليس عندها مانع هذه المرة، المهم أن تتسبب في إنقاذهما.

***

ذات صباح بارد، وفي ساحة الكلية المزدحمة تقابلا لأول مرة. كان لقاءً غريبًا في الحقيقة. في البداية سمعتْ هدير تلك ذلك النحيب. كادتْ تُكمل سيرها دون أن تشغل عقلها بهذه الأشياء؛ فهي تحدث على الدوام، ومن حق المرء أن ينتحب كما يريد. لكنه الفضول.

توقفتْ، وألقتْ نظرة بطرف عينها؛ لتجد فتاة تجلس هناك، في ركن منفصل، بالقرب من شجرة جميز عملاقة، وهي تتطلع

بتعاسة لبضع شطائر ترقد أمامها ترمقها بالمثل، وكأنها تنتظر إقدامها على التهامها.

ما علاقة هذه الشطائر بتلك الدموع التي تسيل غزيرة على وجنتيها؟ اقتربتْ منها في حذر، وما أن رأتها تدنو منها، حتى ابتسمتْ في حرج، وهي تمسح دموعها دون جدوى؛ فهناك المزيد دومًا.

"هل أنتِ بخير؟"

سألتها بصوت خافت.

"ماذا ترين؟"

قالت هدير محاولة أن تلطّف الجو:

"هل هي سيئة لتلك الدرجة؟"

قالت بارتباك، وهي تهرب بوجهها بعيدًا:

"ماذا تقصدين؟"

"الشطائر."

قالتها، وهي تشير إلى الشطائر؛ فانفجرتْ نهى بشكل مفاجئ في الضحك. كان ضحكًا غريبًا وسط هذا البركان من الدموع.

"اعتقدتُ أنكِ تقصدين شيئًا آخر."

جلستْ هدير بجوارها، وقد اعتبرتْ أن تلك الضحكة دعوة مفتوحة:

"ربما أقصد شيئًا آخر."

عادت النظرة الحذرة لعينيها؛ فقالت بسرعة:

"في أول شهر في الكلية تنتحبين هكذا. يبدو أنكِ تكرهينها لحد الجنون."

قالت بحزن:

"ليس الأمر كذلك."

لم تنطق بحرف؛ فقط تركتْ ابتسامة ترف على شفتيها، وكأنها تسألها: ***وماذا بعد؟***

بعد قليل بدأ الجليد يذوب قليلًا.

"إنه شخص أنا مهتمة به"

"آها."

قالتها، وهي تضيّق عينيها. قصة حب أخرى فاشلة.

"ماذا حدث؟"

قالت وقد عادت للنحيب من جديد:

"لقد خانني! ذلك السافل!"

أخرجتْ علبة مناديل ورقية من حقيبتها الوردية، وأعطتها واحدًا، وهي تقول:

"ماذا فعل ذلك الـ الوغد؟"

تمخطتْ في المنديل:

"امفففففف."

تراجعتْ باشمئزاز، ثم تذكرتْ بأنها من المفروض أن تكون عاملا مساعدا لها، وأن الوقت ليس مناسبًا للتحدث عن النظافة والسلوكيات الحسنة.

"لقد علمتُ منذ قليل أنه يحب فتاة أخرى غيري. هل تتخيلين هذا؟ بعد أكثر من عام ونصف من الحب، يتركني بهذه البساطة."

لم تكن قد مرّتْ بقصة حب من قبل، لكن هذه القصص موجودة حولها بكثرة؛ مثل البكتيريا التي تعجّ بها ذرات الهواء. نتنفسها، ونعيشها؛ إذ يبدو أنه سلوك بشري شائع جدًا.

أحيانًا تتخيل بأنها مريضة، لا تملك قلبًا مثل بقية البشر. ذات مرة اقترحتْ أمها أن تذهب لطبيب نفسي. أخبرتها بأنها سعيدة هكذا؛ لكنها لم ترضخ، حتى دفعتها دفعًا للذهاب إلى واحد.

قالت مواسية:

"إنه الخاسر. سيعرف بقيمتك متأخرًا، وسوف تركلينه، وتحطمين قلبه كما حطّم قلبك."

كانت تتكلم بشكل مجازي طبعًا، لكن نهى تشبثت بالجملة، وبدأت عيناها تتسعان حالمة، وبريق الانتقام يعبر عينيها. يبدو أن الفكرة قد راقتْ لها.

على الرغم منها وجدتْ نفسها تنفجر ضاحكة. رمقتها نهى بدهشة، ثم بغضب، ثم استحال انفعالها إلى ضحكة صافية من قلبها، وعلمت أنهما ستغدوان صديقتين.

***

هنا انطفأتْ الأنوار بينما تحدّق إلى وجه نهى المتوتر كقطّ. وفي الظلمة تحدث أشياء تبلبل التفكير. تستند إلى الجدار، تستمع إلى بعض الهمهمات:

"الكهرباء انقطعت. ربما يفسد الجهاز عقلها. سنفقد ما نريده، وسيُقلي مخها."

شعرت هدير بالتوتر. طبعًا يتحدثون عن تلك المسكينة التي رأتها، لكن عليها أن تحسن الظن بهم لآخر لحظة. لابد أنها طريقة جديدة للعلاج.

كانت هناك رائحة غير مريحة تتحرك في الظلمة، تزكم أنفها، وتشعرها بعدم ارتياح. هل وقعتا في قبضة عصابة من المجرمين؟ كلا.

لم تقع بعد؛ فقد هبطتْ يد في العتمة على كتفها، أجفلتْ برعب، لكن صوت نهى المميز اخترق مسامعها:

"إنها أنا. فلنذهب."

وأمسكت بذراعها الأيسر؛ فتركت نفسها إليها، وهي تتبعها.

خطر لها: نهى، أيتها العزيزة، لم أكن أعلمِ أنك قطة متمرسة ترى في الظلام.

تنتقلان من مكان لمكان، ينعدم الزمن، تتشابه الأماكن في الظلمة الدامسة، أناس يتحركون بعصبية، تتعالي الأصوات بأن ثمة خطأ في مولّد المستشفى، وأن ثمة من عبث به.

أيًّا كان من فعل ذلك؛ فله الشكر موصولًا من أعماق قلبها. بعد دقائق عادت الأنوار تغمر المستشفى، ووجدت نفسها بالقرب من باب حجرتها. تبحث ببصرها المندهش عن نهى؛ فلا تجدها.

هل فقدتْ طريقها، أم هل ارتكبتْ حماقة جديدة؟

تدخل حجرتها، تنسلُّ إلى سريرها، تدفع بالأغطية على جسدها، تلتقط أنفاسًا باردة مبهورة من الهواء؛ فيبدو أن حياتها النمطية لم تحتمل كل هذه الإثارة؛ التي دفعت بالدماء مع الأدرينالين في عروقها.

بعد برهة وجدتْ نهى تدخل مسرعة، وهي تلهث:

"ها أنتِ ذا. لقد أقلقتني. لقد خشيتُ أن سوءًا قد لحق بكِ"

"أنا بخير يا عزيزتي"

قالت نهى بانفعال جارف:

"أرأيتِ ما حدث؟"

قالت بضيق:

"وكيف سنرى في الظلمة أيتها الذكية؟ باستثنائك طبعًا؛ فلم أكن أعلم أنكِ ترين في الظلام كالقطط!"

"عما تتحدثين؟"

كانت تظن أن نوبة غباء تمرّ بها كما هي العادة؛ بدا هذا واضحًا من عينيها المتسعتين عن آخرهما، وهي تستند إلى باب الحجرة.

قالت هدير مرتبكة:

"لقد مددتِ يدكِ إليّ، وقدتني إلى هنا."

"أنا؟"

صرختْ فيها:

"هل تعبثين معي؟ لو كانت هذه دعابة..."

قاطعتها بتوتر مندهش:

"لقد كمنتُ في مكاني حتى عادت الكهرباء، وقد كنت آمل أن تفعلي المثل."

كانت تتكلم، وملامحها تنضح بالصدق. وإذن يفرض السؤال نفسه بسماجة:

من الذي مدّ يده إليها، وقادها في الظلمة، ولديه قدرة فائقة على تقليد الأصوات، بما فيها صوت نهى ذاته؟

هنا-وكأنما سمع المتصل الغامض ما تفكر فيه-رنّ هاتفها المحمول. فتحتْ الـ Speaker؛ لكي تسمعه نهى؛ فقد شعرت أنه هو، وبما أن صديقتها قد صارت شريكتها في الأمر؛ فحقّ لها أن تسمع طلاسمه وألغازه وترهاته. عقل واحد أفضل من عقلين:

" لا داعي للشكر على إنقاذ حياتك يا عزيزتي."

"أنت من فعلها؟"

"وهل تهمّ الإجابة الآن؛ المهم أنكِ بخير."

"كنتُ أظنك أحد المختلين، لكن بما أنك تتحرك بحرية؛ فلم لمْ تعتن بأمر الحجرة رقم صفر، بدلًا من أن تزجّ بي في ذلك الجنون؟"

قال بعد لحظ صمت:

"لديِّ أسبابي، وصدقيني فهي أسباب مقنعة جدًا"

"إنني أستمع"

"ربما فيما بعد. المهم أن تهتما بالمشكلة القادمة إليكما الآن"

هنا تكلمت نهى، وقد استطاعت-بمعجزة ما-أن تصمت لثلاث دقائق:

"أي مشكلة؟"

قال صاحب الصوت:

"المشكلة التي جلبتها أنتِ معكِ. أحدهم قد رآكِ، وعرف مكان الحجرة الخاصة بصديقتك، وعما قليل، سوف تجدينه هنا."

نظرتْ هدير حولها متوترة:

"هل تراقبنا؟ هل ترانا الآن؟"

تجاهل سؤالها، وقال بهدوء من يملك الوقت كله:

"تحركا بسرعة. الوقت ليس في صالحكما. إنهم ينوون بكما شرًا."

في نفس اللحظة التي سمعتا فيها الخطوات القادمة من أول الممر.

***

لو أنها في ماراثون فلن يقدر قلبها على الوثبِ هكذا في صدرها، ككرة مطاطية حمراء.

"ماذا نفعل؟"

"نغلق الباب أولًا"

قرنتْ نهى قولها بالفعل، ثم التفتت إليها، وقالت بلهجة قيادية مثيرة للإعجاب حقًا؛ بما أنها صادرة من فتاة يتحول أنفها إلى بالونة حمراء منتفخة عندما تبكي.

"سننزل من النافذة."

قالتها ببساطة، وهي تطلّ برأسها، ربما لتقدير المسافة الكاملة.

"هل جننتِ؟"

قالت موضحة:

"لو بقينا هنا فسيأتي هؤلاء القتلة لذبحنا."

قلت بصوت لم يقنعها هي شخصيًا:

"ربما في الأمر خدعة."

نظرة متسائلة في عينيها، شجعت هدير لأن أقول:

"ربما هو برنامج ما. أنتِ تعلمين تلك البرامج التي تعتمد على المقالب. ربما هو برنامج يُعدّ لشهر رمضان القادم."

"برنامج مقالب؟"

قالتها ببطء حائر، وكأنها تستوعب الفكرة الغريبة. قالت بحماس، وقد أراحها أن ثمة تفسيرًا يمكن أن يخرج عقلها من تلك الورطة على خير:

"ألا تلاحظين أن الأمر غريب، وبه مسحة دراماتيكية جديرة بالأفلام الأمريكية؟ رجل غامض يتصل بي على هاتفي، ويدلني على حجرة تحمل الرقم صفر. ثم أي مستشفى هذا الذي يبدو مهجورًا كبيت أشباح، حتى لو كان قد افتتح منذ أيام؟ الأمر مثيرٌ للريبة، وعدم التصديق حقًا."

"هممم."

صدرت من بين شفتيها، وكأنها تفكر. تقطب حاجبيها، أنفها يهتز قليلًا. في ظروف أخرى كانت ستبتسم، لكنها الآن مشغولة بالخطوات التي تتحرك في الممر بعصبية مجنونة. لابد أنهم يحاولون تحديد الحجرة التي توجدان فيها.

قالت هدير فجأة:

"إنهم رأوكِ أنتِ فقط؛ أليس كذلك؟"

"أعتقد ذلك"

ارتقت هدير السرير، وقالت لصديقتها بسرعة:

"اتركي الباب مواربًا، ثم انزلي تحت الفراش، وحاذري أن تصدري صوتًا."

"لكني لا أفهم."

"ليس الآن يا نهى. ليس الآن. افعلي ما طلبته فورًا"

تحركت نهى للباب، وفتحته قليلًا، ثم ألقت بنفسها تحت الفراش بحركة متهورة طائشة، جعلت هدير تضحك على الرغم منها. همستْ:

"رفقًا بنفسك يا نهى. ستنبهينهم لوجودنا بفعلتك هذه."

"آسفة."

"شششش."

وعلى الفور جلستْ هدير على فراشها، وسحبت الغطاء عليها، وأغلقتْ عينيها.

الوجود ينزلق في ثقب أسود؛ فلا يتبقى سوى العدم؛ الفراغ، ودقات قلبها.

القلب يتثاءب، حيث يجب أن ينام، ويتكلم حيث يجب أن يصمت. ليس الآن. ليس الآن. الخطوات تقترب من الحجرة. لوهلة شعرتْ بمن-دون أن تفتح عينيها-يقترب من الباب بالفعل.

لعله يطلّ برأسه مستكشفًا. الآن يراها في فراشها بلا حول أو قوة. لو كانت هاربة لكانت أغلقتْ الباب.

لكن أن تفتحه هكذا؛ فمعني هذا أنها جريئة جدًا، أو بريئة مما حدث بأسفل؛ عند الحجرة رقم صفر. في رقدتها هذه أمكنها أن تشعر بتململ نهى تحت السرير. لابد أن هذه الحمقاء ستقوم بارتكاب خطأ ما؛ سيجعلهم ينتبهون إليهما. القصة دائمًا هكذا،

في الأفلام أو الروايات. فهل تحدث سابقة، وتنجوان من براثن ذلك المجهول المخيف؟

تبتعد الخطوات، يسود الصمت. ظلّت دقائق هكذا، حتى بدأ قلبها يعود لنومه اللذيذ؛ مما جعلها تطمأن؛ وتتنفس أخيرًا.

تنزل من فراشها، وتنظر تحته، وهي تهمس:

"نهى. نهى."

وابتسمتْ على الرغم منها عندما وجدت نهى تغطّ في نوم عميق. تناولتْ وسادة من فوق السرير، ووضعتها برفق تحت رأس نهى، وقالت هامسة:

"أحلام سعيدة أيتها العزيزة."

وأراحتْ ظهرها على جانب السرير. وقالت بصوت لم تسمعه هي بالكاد:

"متى يأتي الصباح؛ فقد سأمتُ هذا الظلام."

***

الفصل الرابع

لم تصلها مكالمات من ذلك الغامض، الذي صدعها بحديثه المستفز عن الحجرة رقم صفر، وأهميتها البالغة.

هناك احتمالٌ كبيرٌ بأنه لقي حتفه. صحيح أنهم لم يجدوا جثته، لكن وارد جدًا أنه مختل، وقاده جنونه إلى حتفه. دوامات النيل الهادرة قادرة على نقل فيل من مكانه لمكان آخر تمامًا، ولن تندهش لو سمعتْ بأن جثته قد وجدوها في دمياط مثلًا.

لكنها-وتعترف بهذا-شعرتْ بالضيق قليلًا من اختفائه.

تعلم بأن الإنسان جحود، ولا يملأ عينه إلا التراب؛ فمنذ أيام كانت تشكو من الملل، ثم عندما ظهر هو أضفي شيئًا من الإثارة والجنون على حياتها الراكدة، كنهر آسن، ومن ثَمَّ فقد راحت تسبُّه وتلعنه، وها هي ذي الآن تفتقده، وتتمنى عودته، على الأقل حتى تعرف حقيقته، وما هي قصته.

عادت للمنزل، وكان جدولها اليومي بسيطًا. في البداية عرفتْ بأن ثمة كدمات بعنقها من الخلف، وأنه لابد من الراحة التامة، وهو أمر التفكير فيه يكاد يصيبها بالجنون؛ فكيف لو نفذته حرفيًا؟

كانت أمها متسلطة بطبيعة الحال، لكنها في تلك المرة كانت حنونًا دافئة، وقد حرصت جدًا ألا تفتح تلك المواضيع المحببة إلى قلبها، والتي تقوم بتعكير دمها في أقل وقت ممكن.

وهذا أيضًا أثار غيظها وضيقها؛ فقليل من الشجار والجدال سيكون صحيًا ومنعشًا، لكن هذه أمنيات لم تتحقق للأسف.

نهى-لسبب ما -لم تعد تتصل بها، ولم تعد تزرها. فقط مكالمات مقتضبة في الهاتف، ثم وعود بالزيارة، لا تتحقق.

كانت آخر مرة رأتها فيها في تلك الليلة. لكم تتوق الآن إلى براءتها وجنونها، وإلي ولعها بتلك الرقصة الإسبانية، وهي تتحرك برشاقة، وتنظر لأعلى بشموخ.

الهاتف موضوع أمامها، تنتظر مكالمة منهما؛ من الغامض، أو من صديقتها؛ الأولي ستعيد الحيوية لعالمها الرتيب، والثانية ستجدد الدفء في قلبها.

تلقي نظرة على جهاز التليفزيون؛ لترى فيلمًا من أفلام الخيال العلمي يتحدث عن كارثة ما حاقت بالأرض؛ لتغير الحياة للأسوأ.

فيلم كئيب، جعلها تزفر في ضيق، ومن ثمّ قامت بإطفائه. ليست في مزاج رائق لهذه الأشياء.

كان أبواها في مشوار ما من مشاويرهما التي لا تنتهي. البيت ساكن، وهو السكون الذي تحبه. تسترخي، تريح قدميها على الأريكة المقابلة لها.

ذلك عندما سمعت تلك الحركة في المنزل.

انتصب شعر رأسها، ونهضت بطريقة حادة؛ جعلت كوب الماء يقع أرضًا، ويتحول لشظايا. كانت حافية، وثمة شظية قفزت بالقرب منها؛ فكان أقرب احتمال أن تطأها بقدمها، وقد كان.

الألم ينزف منها مع الدم، لكن أذنيها تحاولان أن تستنفرا كل طاقتهما من أجل أن تتابع تحركات ذلك المتسلل.

لص؟ الآن، وقبل منتصف الليل؟

لكن نظرة سريعة للساعة الضخمة على الجدار؛ لتدرك بعدها-بذهول -أنها تجاوزت الثالثة صباحًا.

بشكل ما تسرّب الزمن من بين أصابعها، لم تشعر بمروره، وهو لم يكلف نفسه أن ينبهها. ربما لو كانت ساعة الحائط تحتوي على منبه صوتي لكان الأمر قد اختلف.

تعرج بصعوبة، تتجاهل الألم الصارخ في عروقها، تتجاهل الدم الذي يخضب السجادة الخضراء، تزيح من ذهنها مشهد مستقبلي لأمها وهي تندب وتولول على هذه السجادة القيّمة التي اشتراها لها والدها كهدية، في زمن مبكر، عندما كانت الرومانسية متأججة بينهما، قبل أن يصيبها نهر الحياة الهادئ بمله وركوده؛ ومن ثمّ صار التمسك بأشياء مادية من الماضي محاولة يائسة لإبقاء ما فات في حيِّز الحضور.

تقترب من المطبخ. ثم تتوقف حائرة. تتذكر أنها فتاة تسير وراء فضولها، تكرر ذات الأخطاء دون أن تتوقف لتعرف أين تذهب، ولماذا؟

كل شيء توقف فجأة، حينما ظهر ظلّ من داخل المطبخ، تلاه شبح يرتدي السواد، أجفلتْ للخلف، لكنه رفع يده مهدئًا إياها، وصوت ينبعث من الوجه المظلم:

" لا تخافي. لا تخافي. إنه أنا."

لثوانٍ لم تميّز الصوت في البداية، لكن بعد تكراره جملته تلك، بدأتُ تنتبه أنها تعرف ذلك الصوت جيدًا. إنه هو.

تقول بصوت مختنق من الانفعال والرهبة:

"أنت!"

"أنا لستُ مجنونًا أو أحمق. فقط استمعي لي؛ فلا يوجد وقت لدينا."

تتراجع للخلف، ألم ساقها يتصاعد بقوة. تكتم أنَّة تحاول الإفلات من جوفها.

"من أنت؟ وماذا تريد؟"

"من أنا؟ سؤال ربما تعرفين إجابته فيما بعد."

صوته واضح، عميق، بخلاف ملامح وجهه الغارقة في الظلمة. وكأن هذا ينقصها.

"لكن إجابة سؤالك الثاني هي الأهم؛ لا تثقي بوالديكِ."

"ماذا؟ هل أنت مجنون؟"

"أنتِ لا تفهمين. إنهما ليسا..."

صوت باب الشقة يؤكد بأن ثمة قادم. تلتفت بحركة غريزية إليه؛ لتجد والديها يدخلان وهما يضحكان. يبدو أن السهرة كانت ممتعة. تعود لمحدّثها الغامض بقلق؛ فلا تجده.

تعود للنظر إلى والديها، وهي تستجلب ابتسامة ما بلهاء لا تعني شيئًا في ذلك الموقف، وعقلها يطرح تساؤلاته إياها عن معني كلامه؛ هذا قبل أن تنتبه لشيء غير مألوف.

إنهما ليسا هما!

في نفس اللحظة قفز أحدهما نحوها، وهو يغرس إبرة محقن في عروق رقبتها.

فجوة سوداء تكونت في فراغ جمجمتها، ووجدت نفسها تنسحق إلى الداخل، تنطبق جدران جسدها وأضلعها، تتحول لمخلوق بائس ذي بعدين، ووجدت وعيها يُجذب إلى ذلك الفراغ المقيت، وهُوِّيتها تتحلل إلى ذرات، ثم إلى عدم.

***

في البدء كانت الظلمة، ثم تبعها النور، يسير ببطء طفولي حذر، يتحسس طريقه بين الممرات الخالية الموحشة، يخطو على مهل من يملك وقته للتعلم، يداعب أجفانها من الداخل، يتسلل بقسوة بين رموشها، مثل إبر حادة لم تمنع من إيلامها.

تتأوه، وهي تفتح عينيها، تلمح ظلين يقفان أمامها، وكالعادة راحت الذكريات تنساب إليها، تعرِّفها بوجودها، وتمنحها بطاقة معرفية لا تُمسك، ولكن تضع بصمتها بالداخل.

كانت قد ولدتُ لتوّها، وخطر لها أن البشر يمارسون العدم والوجود في كل مرة ينزلقون فيها لهوّة النوم، وفي كل مرة يستيقظون فيها من وهدة العدم.

"إنهما ليسا أبواكِ."

هذه تكملة جملة ذلك الغامض، الذي اتضح أنه ليس معتوهًا.

لقد قصد تحذيرها من هذين الشخصين اللذين يدخلان بيتها من الباب الأمامي، وهما يتضاحكان، قبل أن يكشفا عن نفسيهما بسفور من لا يخشى شيئًا.

المثير للغيظ أنه قصد تحذيرها قبل دخولهما بلحظات، كأنما ظن الأحمق بأن هذا كافٍ بالنسبة إليها. تمقت تلك التحذيرات الناقصة المبتورة، والتي تظهر في وقت حرج، وكأنها تملك من الترف والألمعية ما يجعلها تكشف معانيها وأسرارها في أقل وقت ممكن.

بالنسبة إليها كان هذا بعد فوات الأوان؛ فهل يعني هذا أنها فتاة مخيبة للآمال؟

كانت مُقيَّدة إلى مقعد، في قاعة شبه مظلمة، إلا من مصباح مزعج، موجه إلى عينيها بإصرار وقح. هناك شريط فضي لاصق موضوع على فمها.

راحتْ تستوعب المشهد بصمت مريب إجباري، كأنها متفرجة خارجية تقف على خطّ الحياد، ليس مطلوبًا منها التحدث أو المشاركة، لكن الأخ-الذي دخل في محيط نظرها فجأة-كان له رأي آخر.

اقترب منها بعينين بارزتين، كماستين ضخمتين ألصقهما أحدهم بوجهه النحيل.

"نعتذر عن وقاحتنا في التعامل معكِ يا آنسة، لكننا مضطرون."

أومأتْ برأسها بمعنى أنها مقدّرة ما يقول، ومتفهمة له، ويبدو أن هذا قد أغراه بأن ينزع عنها الشريط برفق.

الحقيقة أنها لم تصرخ أو تندب، أو تنشب أسنانها في عنقه كما تفعل البطلات في القصص والأفلام فهي تعلم بأنها-بالرغم من فضولها -فتاة جبانة بامتياز.

سألته بصوت مضطرب:

"كيف دخلتَ البيت؟"

ابتسم. وجهه النحيل مع عينيه البراقتين، مع الضوء القادم من جانبه أعطاه انطباعًا أسطوريًا مؤثرًا، يبدو أنه يستخدمه بنجاح. خطر لها أن الفدية ستكون ضخمة جدًا.

ترى هل يصمد أبوها أمامهم؟ المصيبة أن قلبها كان يدّق بعنف، يزلزل جوانبها، بينما عقلها يحلل ويفكر بهدوء متزن.

"قمنا باستعارة ثياب والديكِ، ومفتاح الشقة طبعًا"

ترفع وجهًا مذعورًا إليه. تلك الابتسامة السمجة على شفتيه الرفيعتين تؤكد أنه لا يمزح.

"هل. هل هما بخير؟"

رفع يده اليمني في مرح:

"اطمئني. إنهما بخير تمامًا. لم يمسهما أحدٌ بسوء."

وداعب أظافره:

"الأمر كله منوط بكِ"

"ماذا تريد؟"

"ثمة شيء يحتفظ به أبواكِ"

"شيء؟"

"خريطة"

عمّ يتحدث هذا الوغد بالضبط؟

يقول موضحًا؛ فالأمر لا يحتاج لعبقري ليفهم أمارات البلاهة المتجسدة على وجهها:

"ثمة خريطة من جلد الغزال ذات لون أخضر غامق، طولها ثلاثون سنتيمترًا، عرفنا مؤخرًا بأن والدكِ يستحوذ عليها. تلك الخريطة مهمة جدًا لنا"

قالت بعصبية:

"لا علم لي بما تقوله. ثم منذ متى يحتفظ والدي بالخرائط؟ إنه مجرد موظف حكومي."

ضحك:

"أهذا ما تعرفينه عن والدك؟"

"ماذا تقصد؟"

"دعينا من مقصدي. المهم. لو أردتِ أن يخرج من تحبينهم بسلام؛ فعليكِ بإحضار الخريطة"

"أؤكد لك يا أستاذ أنني.."

قاطعها وهو ينظر في ساعته بملل:

"أمامكِ أربع ساعات بالضبط. لو تأخرتِ دقيقة واحدة فسيؤسفني أن تكون العواقب وخيمة."

لحظة صمت مقيتة، تتخللها موجة من الأفكار والخواطر المضطربة كسطح مائي مهتز.

"إلى أين تقود هذه الخريطة؟"

تسأله؛ فيرمقها بكرتي عينيه اللامعتين، ويقول بغموض مستفز:

"إنها تحدد مكانا خاصا يسمونه "الفردوس"."

***

مخبول. مخبول. لابد أنها وقعتْ في يد مجموعة من المخابيل.

عن أي فرودس يتحدث؟

تخطو إلى الشارع البارد، في تلك الساعة المتأخرة، بعد أن غادرتُ السيارة التي أتت فيها. طبعًا غادرتْ ذلك المكان

معصوبة العينين؛ مما يجعل تحديد المكان من ضرب المستحيل.

لقد احتاطوا لكل شيء.

تغذَ السير نحو العمارة الشاهقة، وعبرت المدخل، ثم المصعد، ثم توقفتُ أمام الشقة.

الوقت متأخر، الشارع شبه خال تقريبًا، أشجار الصفصاف القائمة على جانبيه تنشر المزيد من الظلال، وكأن هذا ينقصها. تعرف بأن السيارة تقبع هناك، يجلس فيها بعض الأشخاص.

لابد أن السيارة تحتوي على أكثر من واحد بالإضافة للسائق. أدركتْ هذا من بعض الأصوات المختلفة حولها. على الأقل لن تخشي أن يظهر أحد اللصوص أو المتحرشين فجأة من ظلمة الليل؛ فهؤلاء القابعين في العتمة سيتكفلون بحمايتها.

تعلم أنها مفارقة ساخرة، لكن ليس الوقت مناسبًا لتغرق نفسها في تلك التهويمات الفكرية حتى النخاع.

تدخل الشقة. تجوس هنا وهناك، تحاول البحث عن الخريطة المزعومة. هي شبه متأكدة أن ثمة خطأ في الموضوع، التبس عليهم الأمر؛ فظنوا أن والدها هو من يقصدونه.

أبوها الرجل اللطيف، ذو الصوت المنخفض، والذي يرى من خلف نظارته الطبية بصعوبة، ويترك قياد حياته لأمها دون أن يتبرم، أو حتى يبدي ضيقًا. تتذكر أنها قالت ملاحظة فيما

يخصّ خنوعه العجيب هذا؛ فاكتفى بابتسامة، وهو يهزّ رأسه دون أن ينطق بكلمة.

معقولة أن يكون خلف هذا المتسامح جانب مظلم؟

تتوقف في حجرة مكتبه، تشعر بقدميها وكأن هناك تمزقات عنيفة في باطنهما. تدور ببصرها في أرجاء المكان، ثم تتوقف عند خريطة ضخمة للعالم تحتل نصف الجدار. خطر لها أن أفضل مكان لإخفاء شيء هو في أوضح مكان، لكنها تحتاج لبعض التدقيق من أجل أن تتأكد مما تظنه.

تقترب بحماس من الخريطة، تحضر مقعدًا، ثم تثب عليه، وهي تحرك قدميها علّ الألم يذهب.

خطر لها أنها منذ ساعات كانت تقلّب قنوات التليفزيون بملل، وها هي ذي الآن تبحث عن خريطة غامضة تقود للجنة- أو الفردوس كما يقول ذلك الرجل الأكثر غموضًا-وحياة والديها على شفرة سكين حامية.

صدق حدسها؛ فالآن ترى خريطة أخرى مخبأة بمهارة، يحيط بها خيط أخضر غامق، وتبدو متناسقة جدًا وسط ألوان الخريطة الأم.

إذن؛ فقد كان على حق.

والدها يملك جانبًا مظلمًا لا تعرف عنه أي شيء.

أشعرها هذا بنوع من الزهو؛ فعلى الأقل هو ليس ذلك الرجل الذي ظنته؛ فخلف ذلك الوجه الحنون المتسامح يوجد

وجه رجل آخر قوي، يعرف كيف يحتفظ بأسراره. يترك لزوجته السفاسف، وحلمها الواهم بالسيطرة، بينما هو من يمسك بزمام الأمور حقيقة.

تهزُّ رأسها متعجبة، وهي تبتسم على الرغم منها.

تنزل على الأرض، تمسك بفتاحة الخطابات القديمة، وتعود للمقعد مرة أخرى. قدماها تتحسنان، ربما بسبب حماسها وفرحتها بإنجاز المهمة.

لابد أن الحمقى لم يستطيعوا التوصل لمكانها.

أفضل طريقة لإخفاء الهدف هو تحت أنف من يبحث عنه تمامًا.

كانت تهمُّ بنزع الخريطة المخفية، عندما تناهي لمسامعي خطوات قادمة تسير ببطء واثق نحو حجرة المكتب.

لقد نسيت. لابد أن مرافقيها أتوا للتأكد مما تفعل. لو رأوا الخريطة في يديها سوف يأخذونها، ولن تضمن عودة والديها. يقفز الذعر لوجهها، يقضي على الحماس بضربة واحدة، قدماها ترتعشان من البرد والخوف، والألم الكاسح يعود مرة أخرى قافزًا للذروة؛ وكانت النتيجة المؤسفة أنها سقطتْ أرضًا.

تتأوه في سقطتها، تحاول النهوض، لكن يقتحم محيط بصرها الكليل-والذي يمتد لنصف متر فقط أمامها-رجل.

يختفي وراء عباءة سوداء طويلة، وقد اقترب منها ببطء.

تكاد تشم أنفاسه الثقيلة المفعمة برائحة لا يمكن وصفها.

رائحة داعبت أنفها، صعدت إلى عقلها، أوقظتْ ملايين الأشياء من سباتها، ويبدو أن الصدمة كانت شديدة على جسدها المنهك أصلًا؛ فخرجت من صدرها شهقة عنيفة، ثم انسحبتْ من عالم النور، لعالم الظلمة.

***

الفصل الخامس

انبثق من العتمة ضوء مؤلم حاد، جعلها تهزّ رأسها محاولة أن تزيحه عنها. ثم كان ذلك الأنين الأكثر إيلامًا، والذي جعلها تنتبه. صوت مألوف هو، صوت مُترع بالعذابات، بالجنون المكتوم، المتراقص تحت الجلد، مخبأ رغمًا عن أنفه، يبحث عن منفذ، عن سبيل للخلاص.

نهى هنا؟

"نـهى. نـهى. أهي أنتِ؟"

"ساعديني يا هدير. أرجوكِ ساعديني."

تفتح عينيها عن آخرهما، ترمق المرئيات، محاولة تجاوز ذلك الضوء المزعج، الذي يجعلها تفقد تركيزها في تمييز الموجودات حولها. تحاول تحريك يديها المقيدتين بإحكام. الحبل الرفيع يكاد ينغرس في اللحم، تبعد رأسها-قدر المستطاع-عن المصباح المسلط على وجهها؛ لتجد نفسها فيما يشبه قاعة خالية واسعة، وهو شيء أثار رعبًا خفيًا بداخلها.

تخشى الخواء الواسع الذي يكون مفزعًا؛ سواء أكان متجسدًا في الواقع عبر المساحات، أو يكمن في مضغة صغيرة من لحم تتخذ مكانها باطمئنان في جانب صدرها الأيسر.

الآن تتضح الأشياء، وتتخذ سمتها المرعب أمام عينيها:

نهى مُعلَّقة من قدميها، جسدها يتدلى لا حول له ولا قوة، في عينيها نظرة ألم تطفح على بقية ملامحها الرقيقة. قلبها ينقبض، مع دخول النحيل ذي العينين البراقتين إلى مجال رؤيتها. يبتسم بتشفٍ واضحٍ، لا يخلو من بعض التعاطف. كيف يجتمع هذا مع ذاك؟ لا تدري.

"أين الخريطة؟"

دوَّي صوته في العتمة الموحشة؛ فزادت وحشتها.

تمتمت بصوت منخفض، وعيناها لا تفارقان الجسد المعلّق هناك، يتطوح قليلًا، بينما الفتاة ترمقها بثبات:

"ليست معي."

نظرة ذئب ظافر تلتمع في عينيه اللتين لا تحتاجان إلى لمعان زائد:

"ها. إذن فقد وجدتها."

زلّة لسانها التقطها اللعين بسرعة.

"أكرر سؤالي يا فتاة: أين الخريطة؟"

لم تنطق بكلمة. ما زالت ترقب صديقتها المعلقة. ألهذا كانت مختفية؟

"لا تختبري صبري"

"شيء ما خطأ."

قالتها بصوت منخفض، حائر، لا ينتظر إجابة بقدر ما كان أشبه بالشرارة التي اندلعت فجأة، ثم راحت تكبر على مهل.

يُقرِّب أذنه منه:

"عفوًا."

ترفع صوتها قليلًا:

"شيء ما خطأ. شيء ما غير منطقي."

"صمتك وعنادك هو غير المنطقي."

ثم أشار بيده؛ فوجدتُ أن ثمة جسدين آخرين يتدليان من السقف.

هتفت بلوعة:

"أمي. أبي."

كانا في حالة سيئة للغاية؛ بدا هذا من ثيابهما الممزقة، وتلك الكدمات تملأ وجهيهما، مع نظرة رعب مفزوعة مكتومة تطلّ من الأعين الغارقة في يأسها.

"أنتِ على المحك يا فتاة. لابد أن تتخذي قرارًا سريعًا؛ إما الخريطة أو يهلك أقرب الناس إليكِ"

قلبها يمارس عادته في الوثب ركضًا في جنبات صدرها، والخوف زائر لعين؛ ما أن تفتح له الباب فلن يغادر إلا بشقّ الأنفس.

"الخريطة موجودة في حجرة المكتب. إنها ملتصقة بالخريطة الأم على الجدار"

قالتها بسرعة، وكأنها تحاول إسكات ذلك الهاجس الذي راحت تتصاعد نغمته ببطء في فضاء عقلها.

ثمة شيء غير منطقي.

ابتسم. قال بتؤدة:

"عين العقل."

ثم تمتم معجبًا، وهو يلقي نظرة مضطرمة كاللهب على أبيها:

"خريطة ملتصقة بخريطة! يا لك من داهية!"

ثم نظر إليها، وقال مبتهجًا:

"ألم أقل لك أنه يخفي الكثير؟"

ومال نحوها؛ لتشمّ من فمه رائحة لعينة منبعثة من قبر مغلق لملايين السنين:

"الظواهر خادعة يا آنستي. لعلك قد تعلمتِ هذا الدرس."

رمقته بغيظ، وهي تحاول تحريك القيد المتين حول معصميها. الأمر سيستغرق بعض الجهد والدم. لكن شقّ قبيح في ذراعيها أفضل من الاستسلام لذلك الوغد. ثم من قال بأنه سيلتزم بكلمته؟ الأفلام علمتها ألا تثق بالمجرمين الذين يغامرون بالظهور بوجوههم العارية.

أشار لرجاله الذين لم ترهم، وإن سمعت حركة لأقدام تجري للخارج.

"أنت لن تبقي على حياتنا. أليس كذلك؟"

لم تتغير ابتسامته، والتي شكت أنها اكسسوار ينزعه عنه قبل نومه.

"من قال هذا؟ أنا رجل عند كلمتي."

"من الممكن أن تكون كذبة أخرى على لسانك."

هزّ رأسه، وقال في حكمة:

"يجوز."

جنَّ جنونها، وكأنه أصدر حكمه بالإعدام عليهم لتوِّه. لم تعلم كم مضي من وقت، كم سال من عرق على جبينها، كم أغمضت عينيها عما يحدث حولها؛ فقط تحاول-بكل جهدها-أن تزيح صور نهى وأمها وأبيها عن ذهنها، وتجعل معصميها يحتلان بؤرة الكادر في أعمق أعماق عقلها.

وفي نفس اللحظة التي استطاعتْ فيها تمزيق القيد كادتْ تتنفس الصعداء فرحًا، لكن النحيل ما زال يحوم حولها كذبابة لزجة يصعب الخلاص منها.

ثم دخل أحدهم.

الحقيقة أنها لم تر وجهه كالعادة؛ فقط ظلّ ضخم يشبه الغوريلا، انحني على أذن النحيل، وراح يهمس ببضع كلمات، لم تعرف الداعي لإخفائها؛ فهي هنا في قبضته، وفي الحالتين لن تخرج.

لكن قلقًا رهيبًا اجتاحها كصاعقة ثلجية غير متوقعة، حين تمعّر وجه النحيل، ولمعت عيناه أكثر في غضب تلك المرة، وانزوت الابتسامة الصناعية من على شفتيه، وكأن الخبر الذي سمعه كان كافيًا لأن تذهب.

ربما للأبد.

"الخريطة غير موجودة."

قالها النحيل، وهو يحدِّق إلى وجهها بنظرة مضطرمة مغيظة. بهذه السرعة؟ كم مرّ من وقت على إرسالهم لهناك؟

مرة أخرى عاد الهاجس اللعين يحفر في قشرة جمجمتها، منذرًا إياها بأن ثمة شيء خطأ هنا.

"أين الخريطة يا فتاة؟"

كشّر النحيل عن أنيابه، وهو يمسك برقبتها من الخلف.

"أنذرتكِ ألا تختبري صبري، ولا تغركِ ابتسامتي."

وهدر صوته:

"أين الخريطة؟"

ألم فظيع ينبعث من إمساكه بها؛ فهو على نحوله قوي البنيان، مفرط القوة كما يبدو الآن من أنينها المنبعث بصوت منخفض؛ إذ أن نبرة الهاجس كانت أعلى.

يشير لأحد رجاله، المتوارين في الظل؛ ليتحرك نحو أبيها.

حسنًا، كان المشهد التالي من أفظع المشاهد التي رأتها في حياتها؛ فقد أخرج الجزَّار من جيبه ساطورًا، وهوى به على ذراع أبيها الأيمن.

الكثير من الصراخ: هي تصرخ من الفزع والمفاجأة، أمها تصرخ من هول اللحظة، نهى تصرخ لسبب مماثل، بينما أبوها يصرخ من الألم الشنيع.

الدم يسيل بغزارة مخيفة، تذكرها بلقطة شاهدتها في فيلم أكشن قديم.

"أنا لا أمزح، ولا أضيّع الوقت يا حمقاء. أخبريني: أين الخريطة اللعينة؟"

صرختْ بكل قوتها:

"إنها ليست معي. لقد وجدتها مُلصقة بالخريطة الكبيرة الموجودة على جدار المكتبة. لماذا لا تصدقني؟"

"لأن رجالي لم يجدوها. حسنًا. عليكِ أن تتذكري تفاصيلها بدقة"

هتفتْ بذعر، وهي تحاول ألا ترجع بعينيها لأبي؛ لئلا تشاهد الدم ينزف منه:

"ماذا؟ أتريد منى أن أتذكر تفاصيل خريطة صغيرة؟ أنت مجنون!"

أشار لنفس الرجل؛ فاتجه لأمها تلك المرة؛ فصرختْ:

"حسنًا، سأتذكر. ائتني بورقة وقلم"

يبتسم، وهو يشير لأحد رجاله؛ فيتحرك أحدهم ويدخل بظله فقط الكادر، ممسكًا بورقة، وكأنه كان ينتظر، أو يتوقعون موافقتها ورضوخها.

الهاجس يرتفع مؤذنًا بتوليد ألم جديد مغاير؛ ألم الرفض.

ثمة شيء يتحرك بداخلها، ينفجر في فقاعات بركانية صغيرة، شديدة الإحراق؛ تجعل القلم في يدها يرتعش، وهي تحاول التركيز؛ فحياة آخرين تعتمد عليها.

حياة آخرين تعتمد عليها.

حياة آخرين؟

حياة؟

"لماذا؟"

قالتها بدون وعي، وقد راح الهاجس يتشكل، ويأخذ شكل علامة استفهام.

"لماذا ماذا؟

سألها النحيل.

قالت، وهي تنظر إلى وجهه:

"إذا كنتم تعلمون أن أبي معه الخريطة التي تقولون بأنها معه؛ فلماذا لم تهددوه بي؟"

ينظر إليها، دون أن ينطق بكلمة؛ فتقول، والكلمات تخرج من فمها مرتعشة على الرغم منها؛ فالنتيجة التي تتجه إليها مرعبة بما فيه الكفاية:

"عاطفة الأبوة أقوى من عاطفة البنوة. الأب ينكسر قلبه لفقد أحد من أولاده، بينما الابن يحزن قليلًا ثم ينسى. لماذا لم تهددوه بي، بدلًا من أن تهددوني به؟"

صمته، مع وجهه الجامد المتذبذب بين ثنايا الضوء، كصورة متراقصة غير حقيقية، تشي بزيفها؛ تشجعها أكثر:

"الآن، بدأتُ أنتبه لعدة أشياء غير منطقية"

قال بهدوء:

"مثل؟"

"السائق كان يجلس أمامي في الناحية اليمنى. النيل كان يجري من الشمال لليمين. المستشفى الخالية تمامًا، والحجرة التي تحمل رقم صفر"

وجهه يبتسم، يكشف عن أسنان نخرة غير منتظمة، تبدو ككهف عميق مظلم كريه.

لا تقدر على الكلام. تنظر إلى وجوه أبيها وأمها ونهي؛ نفس التعبير. نظرة الفزع المكتومة، من رؤوس مدلاة لأسفل. هذا المنظر: أين رأته من قبل؟

"الظواهر تخدع يا فتاة."

"لا تصدق كل ما تراه عيناك."

"للعقل ألاعيبه وأعاجيبه. إنه السيد الفعلي في عالم الحقيقة"

تعيد النظر إلى وجوه أقرب الناس إليها؛ فتجد الدم يسيل منهم بغزارة غير طبيعية. غزارة تتحدى المنطق؛ فأجسادهم ما زالت تتحرك.

ترفع رأسها للوجه المحدِّق إليها، وتقول بصوت فحيحي بدا لها غريبًا، كأنه غير صادر منها:

"من التي توجد في الحجرة رقم صفر؟"

***

قال بهدوء، كمن يسمع سخافات فتاة مجنونة، ولا تلومه كثيرًا:

"الحجرة رقم صفر؟ عن أي شيء تتحدثين؟"

ثم طقطق بلسانه:

"ادعاؤك الجنون لن ينقذكِ من قبضتي."

استنتاجها الذي كان قويًا منذ لحظات، يتشقق سطحه؛ كأنه تعرض لموجة من الصقيع الثلجي. يقول بتؤدة:

"ارسمي ما تتذكرينه من الخريطة؛ ففي هذا نجاتكم."

"كيف أرسم ويداي مقيدتان؟"

تسأله؛ فيشير لأحدهم، فيبرز رجل ضخم، وسيفه ما زال يقطر دمًا.

ينحني إليها، بينما عيناها تتجهان للسيف؛ فتجد أن الدم الذي يسيل لونه أخضر.

اللون الأخضر هو لون الحجرة رقم صفر.

هو لون العباءة التي يرتديها الغامض الذي أخذها من البيت لهنا.

لون الخريطة.

رسائل متتالية، ترسل إليها في العتمة؛ بقصد أن تفيق وتفهم.

يغدو استنتاجها يقينًا بنسبة كبيرة، لكن الشكّ-ذلك المراوغ- يبسط عباءته على عقلها، ويسألها بخبث:

"ماذا لو كنتِ مخطئة؟"

تمتمتْ كالمجنونة:

"هذا العالم غير حقيقي. هذا العالم غير حقيقي."

تكررها، وقبل أن يصل الضخم ليديها تتحرك قدمها اليمني وتركله بقوة؛ فيندفع للخلف، بينما تثب نحو السيف، وتمسكه بقوة. يتراجع النحيل للخلف:

"ماذا تفعلين؟"

تتجاهله، وهي تثب نحو أمها. أحبُّ الناس إليها، تنظر إليها بعينين متسعتين، والدم الأخضر يسيل بغزارة كما في السابق.

تهمس في أذنها:

"اطمئني يا أمي. كل شيء سيكون على ما يرام".

واستجمعت قوتها وقسوتها، وهوتْ على رقبتها بالسيف.

صرخة قوية تندلع. صرخة ألم. صرخة جنون. صرخة صحو.

الأشياء من حولها تتداعي، تسيل، الأجساد تغدو حممًا بركانية ذات لون أصفر كئيب، وحرارة ثقيلة خانقة، وهي تتجه نحوها بسرعة مذهلة، ثم تغمرها بكل قوتها.

***

الفصل السادس

تصرخ، وهي تفتح عينيها؛ لتجد نفسها راقدة على السرير، وبعضهم يطلّون عليها بوجوههم، ونظرة فزع مماثلة تعلو وجوههم العارية.

تنظر حولهم برأس يكاد الصداع يسحقه تحت وطأته، وهنا برز وجه فتاة جميلة ذات شعر أحمر، وهي تقول:

"حتى هذا لم يفلح معكِ."

ثم تقول بصوت فحيحي غاضب:

"أين الخريطة يا فتاة؟"

تقول بوهن:

"عن أي شيء تتحدثين؟ وأين أنا؟"

كانت حجرة واسعة نوعًا، ذات جدران بيضاء تميل للون أصفر كئيب، الممتزج بلطخات من الأخضر، وكانت راقدة على سرير حديدي. أمامها مرآة عملاقة تحتل نصف الجدار المواجه لها، بدتْ فيها مبعثرة الشعر، منحرفة المزاج، وثمة هالات داكنة ترقد تحت عينيها. تعود إليها الذكريات بسرعة، تعيد تخليق شخصيتها من جديد؛ فتسأل نفسها دون صوت: ***من أنا، وما الذي أتى بي إلى هنا؟***

موجة من البخار المتجمع على هيئة ضباب داكن، يتم إعادته لجمجمتها رغمًا عنها؛ لذا يمكن تخيُّل الضغط الواقع

على ذهنها، وهي تحدِّق إلى الوجوه المحيطة بها، في صمت مشوب بالغضب، وكأنهم يُحملّونها مسئولية شيء لم تفعله، أو فعلته ونسيته.

بدأتْ في الإحساس بتلك الأشياء الخارجة من ذراعها، ومن رأسها؛ أقطاب بلاستيكية مضيئة بلون أخضر تومض بشكل منتظم، وتمتد حتى جهاز كمبيوتر محمول، موصل بجهاز آخر أبيض، بدا محايدًا ومستفزًا بشكل غريب، كأنه يرمقها هو الآخر بغضب.

كانت عيناها ترصدان ما يحدث، في الواقع مالا يحدث؛ فالكل تجمد، وكأنما استيقاظها كان غير متوقع بالمرة.

وعلى سرير آخر بجوارها، كانت ترقد نهى.

وجه شاحب، عينان مغلقتان، أنفاس ثقيلة من صدر يعلو ويهبط في بطء، وكأنما تعاني من سكرات الموت، وكان هناك بؤس طاغ على صفحة وجهها، مختلفٌ عن ذلك الوجه الصبوح، الذي كان يمارس البكاء كلما وجد وقتًا.

كانت مشوَّشة، تشعر بالدهشة الممزوجة بالكآبة. كل شيء كئيب، يرفرف بروحه الثقيلة على المكان، تعتدل في جلستها؛ فيصرخ الألم في عروقها.

يلتفت رجل نحيل للفتاة، ويقول بضيق:

"الجهاز لم يلتقط إلا بضع صور فقط من ذاكرتها. عقلها كان يقاوم بشكل غريب."

صرختْ في وجهه:

"لقد أخبرتني أن الجهاز يستطيع الدخول إلى غيبوبتها، وخلق عالم افتراضي مقنع جدًا؛ بحيث يستسلم عقلها، ويخبرنا بمكان الحصن؟"

قال بذعر، وهو يلوِّح بيديه:

"وأخبرتك أيضًا أنه النموذج الأولِّي رقم صفر، ووارد جدًا أن تكون هناك بعض المعوِّقات. لا تنسى أن التجربة أخذت وقتًا لا بأس به؛ أي أننا لم نقصر، وقد أعطيناها وقتها."

ثم نظر إليها نظرة غاضبة مغيظة:

"لكن لم أتصور أن تخرج من ذلك العالم بهذه السرعة؟"

همستْ، وقد شعرت بمطرقة تدّق بحماس في جدار جمجمتها:

"عما تتحدثون، وأين أنا؟"

اقتربت منها الفتاة ذات الشعر الأحمر، وقالت:

"ألم تفهمي بعد؟ كل ما مررتِ به هناك؛ مجرد خيال إلكتروني متقن."

"أنتِ كاذبة؟"

أمسكتها من ذراعها بقسوة؛ فصرختُ والأنابيب المغروسة في لحمها تتمزق، ومعها تدفق الدم الغزير، والرجل يهتف:

"هل جننتِ؟ ستقتلينها!"

جذبتها للنافذة المفتوحة. جرتها إليها جرًّا؛ إذ أن ساقيها فقدت الإحساس بهما، وهما يزحفان وراءها، ورفعتها بقوة مهولة، وقالت:

"لا يوجد فرق؛ فسأقتلها على كل حال."

عقلها ما زال مشوشًّا، الألم يرقص رقصته بداخلها، تأن على الرغم منها، وهي تنظر-مجبرة-من النافذة؛ لترى ضبابًا نصف معتم يتحرك بحرية أمامها.

للحظات ينقشع؛ فتتضح المباني المتهدمة، وخراب فريد يبسط قبضته على كامل المدينة.

وابتسمتْ وهي تهمس في أذنها:

"مرحبًا بكِ في نهاية العالم."

ترمق المشهد غير فاهمة، تحاول التملص من قبضة المرأة بدون جدوى، تقول، وهي تهمس في أذنيها:

"العالم صار مجنونًا يا فتاة؛ أصيب البشر بالخبال، وبدأت قلوبهم تكتسي بالسواد."

***

كان قلبها يخفق، يعاود ركضه المحموم في أودية الجنون. إنه نفس المنظر الذي رأته من قبل؛ ذاك الفيلم الذي شاهدته في حياتها الماضية؛ عندما كان التليفزيون يعرض ذلك الفيلم الكابوسي عن نهاية العالم.

لم يكن خيالًا تفتق عنه ذهن ألمعي، بل كانت هي الخيال في عالم مكوّن من الأرقام، والنبضات الكهربائية التي كانت تسري في الأسلاك، وتنتقل بين الأثير الغامض.

"دعيها يا سهام"

سهام. أهذا هو اسمها؟ تستدير، تتماسك بصعوبة، الآلام تجتاح جسدها مجددًا. وهناك، بالقرب من الباب كان يقف رجل طويل، متين البنيان، يجلل رأسه شعر فضي. أحنت سهام رأسها بخضوع:

"سيدي."

تجاهلها الرجل، اقترب منها، وهو يسير بخطوات بطيئة على السيراميك، خطوات مُنغَّمة، ذات وقع موسيقيٍّ، وكأنه يعزف سيمفونية ما بداخله. يذكرها هذا بشخص ما.

"هل توصلتِ إلى سرَّ ذلك المكان."

سألته مضطربة:

"أي مكان؟"

قال بهدوء:

"يبدو أن ذلك الكمبيوتر اللعين قد عبث بعقلك. أقصد ذلك الذي يسمونه "الفردوس."

دمدمتْ، وهي تتذكر حديث النحيل ذي العينين البراقتين عن مكان يحمل نفس الاسم:

"الفردوس؟"

قال الرجل ملوِّحًا بيده:

"طبعًا لا أقصد ذلك المكان الذي ينتظر من يعتقدون بوجوده بعد الموت. إنما أقصد مكانًا أرضيًا يقبع في مكان ما هنا. مكان لا يعرفه سوى شخصين فقط؛ أنتِ، و.."

وأشار لنهى التي ما زالت نائمة لحسن حظها، تغطّ في نوم عميق، تاركة إياها تقاسي غرائب هذا العالم، ومعتوهيه:

"وتلك الفتاة."

ثم نفخ بضيق:

"لقد خضنا هذه المناقشة من قبل، لكن يبدو أن هذا الجهاز اللعين قد عبث بعقلك."

رمشتْ بعينيها حائرة، وهي تعتصر أعصابها، وثمة عرق ينبض في جبينها؛ يسبب لها ألمًا كاسحًا، كاد يودي بتوازنها وهي واقفة.

تمتم، وهو يحدِّق إليها:

"أنتِ حقًا لا تتذكرين. هذا الوجه البائس المترع بالعذاب كيف أتخيل أنه يعرف سرّ كهذا؟"

قالت سهام بسرعة، مدافعة عن تصرفها:

"لكن.."

قاطعها:

"خطأ. ابحثوا عن خيط آخر يقودنا إلى ذلك المكان"

هنا، دخل أحدهم، وقال:

"سيدي إنهم هنا."

قال بهدوء:

" أخلوا المكان"

قالت سهام، وهي تشير إليها، وإلى نهى:

"وماذا عن هاتين؟"

قال بهدوء لا مبالٍ:

"اتركوهما هنا."

ورمقها بنظرة شامتة، وهو يتحسس قلبه:

"فهذا أقل ثمن ستدفعينه على ما فعلته بي من قبل."

بدت حائرة وهي تسأل نفسها: ما الذي فعلته بالرجل ذي الشعر الفضيِّ؟

واقترب منها، حتى كان وجهه يلتصق بوجهها، وقال:

"لكن الشكر لكِ؛ فقد ساعدتني-بدون قصد-في أن أحلَّ مشكلة قلبي للأبد."

وانفتح باب جانبي، وهُرع إليه ذو الشعر الفضيِّ، بينما همست سهام بشماتة:

"ستتمنين لو كنتِ قد تذكرتِ، بدلًا من الوقوع في أيديهم"

وأردفت، وهي تقرِّب فمها من أذنها، وجرعة الشماتة تتضاعف:

"لا أحد ينجو من قبضة ذوي القلوب المعتمة."

ثم تركتها، وهي تجري خلف سيدها، وتغلق الباب وراءها بإحكام. هنا تحركت هدير، كان عليها أن تنفض البلاهة والاندهاش عنها، وتتعامل مع واقعها الكئيب بشكل عملي.

وثبتْ نحو نهى؛ فجاءت الوثبة ضعيفة، متهالكة، تتناسب مع جسد رخو، ما زال يحاول التأقلم مع هذا العالم. تصفع صديقتها على وجهها برفق:

"نهى. نهى. استيقظي. استيقظي يا حمقاء."

كأنها نادتها باسمها المحبب؛ فقد فتحت عينيها، ونظرت إليها ببلادة. مدت يديها تنتزع الأسلاك والخراطيم المغروسة في لحمها، ثم أدخلتْ ذراعها الأيمن بين الفراش وبين جسدها، ثم راحت ترفعها بذراعها الأخرى.

كانت نهى ضئيلة الجسم إلى حدٍ ما، وهذا ساعدها أن تجرّها بصعوبة إلى الباب المفتوح، وهي تستمع إلى ضجيج وحركة قادمة من أسفل.

تنظر لوجهها الشاحب، وعينيها الزائغتين المحدِّقتين في فراغ مطلسم؛ فتدرك أنها لن تلقي منها أي مساعدة، وأن عليها أن تعتمد على نفسها تمامًا. لشدّ ما كانت تحتاج لحكمتها وبراءتها.

وكأنها سمعتها؛ ففي نفس اللحظة التي راحت الخطوات تنتشر؛ بدأت الحياة تعود لعينيها الخاويتين، تتلونان بحيرة وليدة، سرعان ما راحت تكبر بسرعة. بدأت تدور برأسها في

المكان، وعندما اصطدمتْ بابتسامتها الفرحة، تراجعتْ برعب للخلف، كأنها رأت الشيطان ذاته.

تقول بضيق، وقد أربكها تصرفها:

"نـهى، إنـها أنـها. هدير؛ صديقتك المقربة."

أطلقتْ من حلقها صرخة رفيعة ملتاعة مليئة بالرعب البرِّي الذي راح يسطع على صفحة وجهها بضراوة، وهرعتْ للباب المغلق لتفتحه.

تصرخ:

"نـهى، لا تفتحي الباب."

لم تكترث، ومدَّتْ يدها للباب تجذبه بلهفة مذعورة، في نفس اللحظة التي امتدت يد سوداء من الخارج، وقبضتْ على ذراعها بقوة مهولة جعلتْ الفتاة المسكينة تصرخ، وفي الثانية التالية تدفق أصحاب القلوب المعتمة للمكان.

***

الجزء الثاني

الفصل الأول

"كان يا ما كان، يا سادة يا كرام، ولا يحلو الكلام إلا بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام"

ردّدّتْ بصوت مُنغَّمْ وراء أمها:

"عليه الصلاة والسلام"

"كان هناك شاب لا تنتعش روحه إلا بالعشق. قال لأبيه ذات مرة أنه سيرحل بحثًا عن نصفه الآخر. سخر منه أبوه، وأخبره أنه مجنون حتى يُضيِّع عمره في البحث عن شخص قد لا يجده. صمّم الفتي على ما يريد، وأخبره بأن يُضيِّع عمره أفضل من أن ينتظر "وكيف ستعرف أنها هي؟" سأله والده بسخرية؛ فأشار لقلبه، ولم ينطق بكلمة. جمع ما يريده في حقيبة قديمة، وقبَّل أبويه وأخوته، ثم غادر. المشكلة أنه لم يكن يعرف حقًا كيف يبدأ. قال بأن الخطوة الأولى هي مغادرة البلدة".

سألتْ بلهفة:

"وهل غادرها؟"

ابتسمت أمها، ودفعت بالغطاء الثقيل الخشن نوعًا على جسدها النحيل، وقالت:

"قبل أن يغادر مرَّ على شجرة صنوبر عتيقة. كان بيته يوجد في الناحية الأخرى من البلدة، ومن ثمّ فقد قطع مسافة طويلة جدًا بطول القرية، وآن له أن يستريح. جلس دون أن يأخذ باله من أن الجانب الآخر من الجذع كانت تجلس فتاة"

تمتمت بأنفاس مبهورة:

"فتاة؟"

عركتْ أذنها برفق، وقالت:

"فتاة أكبر منكِ قليلًا، ذات قلب أخضر لم يرتو بالعشق، فقط يحلم بغدٍ أفضل"

"وماذا فعل؟"

"كانت تجلس غافية تحت ضوء الشمس، تمسك كتابًا تضعه في حضنها، كحبيب لم يأت موعده بعد"

قالت بسرعة:

"أو أنه قد أتى".

لم تعقِّب الأم. فقط اتسعت ابتسامتها قليلًا؛ فغمر الضياء الحجرة.

"شعر الفتي بقلبه يخفق لأول مرة. استدار ناحيتها يمعن النظر في ملامحها. كانت وردة برِّية، توِّجه وجهها للشمس؛ وجه أبيض، وأشعة الشمس تنسكب على جلدها النقي؛ فتكسبه حمرة ذهبية؛ فبدت كأنما تتبادل معها حديثًا هامسًا. ضغط الفتي على صدره. قلبه يركض دون توقف، يحاول أن يفلت

من مكانه الذي وضع فيه منذ بدأ الخلق. ضغط أكثر؛ وهو يخشى أن تصلها خفقات قلبه؛ فتفضحه. يزيد القلب من سرعته المجنونة؛ فتمتم الفتي لنفسه "هل أموت الآن بعد أن وجدتها؟ ليس الآن. ليس الآن". كان لا يزال يتطلع لوجهها، يرتوي من عطش السنين. انتبهت الفتاة إليها؛ فقفزت صارخة وهي تعدو لمنزلها القريب. هتف وهو يركض خلفها صارخًا: انتظري؛ إنه أنا. إنه أنا." زادتْ هرولة الفتاة؛ لتزيد سرعة الفتي أكثر، وكأن حياة مرهونة بركضه خلفها. ظهر والدها الضخم، ذو القبضة الحديدية، وهشَّم فكّه بلكمة خاطفة؛ ألقته أربعة أمتار للخلف، ثم أشار لأولاده؛ فظهروا من بين الأشجار المحيطة بالمنزل، بعضلاتهم المفتولة. انهالوا على الفتي بالضرب، ثم تركوه خرقة غير صالحة للاستعمال."

"مسكين."

تمتمت أمها بعدة كلمات؛ ربما هي موافقة، أو مطالبة منها بألا تقاطعها. في كلتا الحالتين فقد صمتت، وأرهفتْ أذنيها أكثر؛ إذ أن القصة بدأت تأخذ منحني أكثر تشويقًا وإثارة.

واصلت أمها:

"بعد المغيب هرعتْ الفتاة إليه، وهي تحمل قدحًا من الماء. سقته إياه برفق، وتطلعتْ لوجهه المطحون، وهمست" أيها الأحمقّ ماذا تريد؟" ابتسم الفتي، وأومأ برموش عينيه كأنه يبعث برسالة إليها. هل استقبلتها؟ لا نعرف. المهم أنها تركته

في مكانه، بينما نهض هو بصعوبة. في صباح اليوم التالي استيقظ أبو الفتاة على حركة مريبة بالخارج. نظر من النافذة؛ فوجد الفتي يقوم بتقطيع جذع شجرة كبيرة. تابعه بقلق دون أن يتدخل. على الأقل الفتي يتحرك في منطقة خارج سلطاته. بمرور الوقت بدأ يتضح ماذا يفعل بالضبط؛ كان يبني بيتًا."

"يبني بيتًا؟ كيف؟"

"من الخشب يا حبيبتي. ساعدته الأشجار المحيطة أن يبني بيته في أيام قلائل. ثم تعوّد أن يظهر كل صباح أمام باب منزله، جالسًا في صمت، يترقب الفتاة دون أن يتحرك. بعد مرور أشهر كاد يُجنّ الأب وأولاده من هذا المتطفل العنيد. هرع إليه الأب ذات صباح بارد، وقال بعصبية "*ماذا تريد؟*" قال الفتي بهدوء "*زوجني ابنتك، وسوف أكون خادمًا لك ما دمتَ على قيد الحياة*" تردد الأب، لكن عناد الشاب، وإصراره أعجبه بعض الشيء. عرض الأمر على الفتاة؛ فوافقت، وهي تنظر للأرض بخجل. تمّ الزفاف السعيد، وبعد أشهر لقيت حبيبته مصرعها."

"ماذا؟ كيف؟"

"خرج حيوان مفترس من الدغل القريب، ومزَّقها شرَّ ممزق. قال الشهود بأنه كان أسدًا ضخمًا، ذو لبدة يختلط سوادها ببياضها، وكانت هناك دائرة محفورة تحت عينه اليسرى، والتي كانت أكثر لمعانًا من عينه الأخرى. جنّ جنون

الفتي، وراح يجوب الغابات والأدغال بحثًا عن ذلك الحيوان الذي حرمه من سعادته. قيل له بأن ثمة شخص واحد فقط يستطيع مساعدته، ويخبره عن مكانه. حكيم يسكن فوق جبل الثلج. جهّز الشاب حقيبته، ووضع فيها حاجياته الأساسية، وخاصة ذلك الخنجر الضخم الذي صنعه خصيصًا من الفولاذ، وقام بتسنين شفرته، حتى يغرسه في عنق قاتل حبيبته. ثم بدأ رحلته. استغرق أعوامًا في السير، حتى تخلل المشيب رأسه. في النهاية أشرف على قمة الجبل المكسوة بالجليد. هناك في كوخ صغير من خشب الصنوبر المغطى بالثلج الأبيض. يجلس على الأرض الباردة دون حائل، يتأمل الفتى بنظرات نفاذة، تسبر روحه، وتتسلل لأعماقه.

"في قلبك ظلمة يا فتي."

"ظلمة ولَّدها العشق أيها الحكيم."

قال بإشفاق:

"العشق لا يولِّد ظلمة يا بني. لو لم يأت الضياء من الحب، فمن أي شيء يأتي؟"

"لديّ ثأر أرغب في أخذه"

"وهل ستستريح؟"

"لا أعرف. على الأقل تستريح هي"

"ومن أدراك؟ لماذا تعتبر نفسك وصيًا عليها لمجرد أنها سلّمتكَ قلبها."

"ذلك العالم صرتُ أمقته. إنه عالم قاس، مخادع، ينضح بالشرور."

"وبفعلتك هذه ستزيد من شرِّه"

بكي الشاب الذي لم يعدْ شابًا:

"وماذا أفعل؟"

"اقض أيامك الأخيرة، وأنت تنثر الخير بين أخوتك من البشر"

ورفع أصابع يده اليمني وقال محذِّرًا:

"من استحق منهم، ومن لم يستحق"

"وإذا فعلتُ هذا؟"

"عدْ إلى عندما تشعر بدنو أجلك، وسوف أدلّك على طريقة مضمونة من أجل أن تقابلها".

"أحقًا ما تقول؟"

"حقًا، وصدقًا"

غادر الفتى كوخ الحكيم، وغرس خنجره الضخم أمام الكوخ، ثم هبط من الجبل، وراح ينشر الخير بين بني البشر، يعاملهم بالحسنى، ويتحمل آذاهم، ولم يكن هذا سهلًا؛ إذ أن البعض قد اعتبر ما يفعله ضعفًا وحمقًا. تحمّل الكثير؛ كُسرتْ ذراعه اليمنى، وتدلت بجوار جسده، وبدأ يفقد بصره، وتحول لُحطام بشري مثير للشفقة، لكن وسط هذا حرص على أن يظلّ شيء واحد فيه دون أن تصيبه بذرة الفناء والعطب".

هتفت الصغيرة متحمسة:

"قلبه."

ابتسمت الأم، ومرَّرَتْ أصابعها على شعر ابنتها الطويل المنسدل خلفها، وقالت:

"هو ذاك. ما زال قلبه فتيّا لم يصبه الوهن. لكن عندما شعر بدنو أجله راح يغذُّ السير نحو الحكيم في جبل الثلج. كان الأمر مرهقًا هذه المرة. تساقط شعر رموشه وجفنيه، وراح جلده ينسلخ عن جسده النحيل، وبدأت بقايا أسنانه تقع واحدة بعد الأخرى، وعندما وصل أخيرًا كان شبه جثة، تزحف على الجليد نحو كوخ الصنوبر. وهناك أمام باب الكوخ كان الأسد يقف صامدًا يرمقه بسخرية شرسة."

اعتدلتْ الفتاة في جلستها. ضمَّتْ قبضتي يديها الصغيرتين تحت ذقنها، وارتكزت عليهما، وهي تنظر لأمها من زاوية سفلية؛ فبدْت لها كعرَّافة تبهرها بجميل الحكايات:

"ثمة شيء بعث الحياة في جسده الواهن. مرأى الأسد وهو بكامل عنفوانه، وتلك الدائرة تحت عينه اليسرى التي كانت أكثر لمعانًا من الأخرى نفخ الروح في الرماد، وجعل العنقاء تنفض عنها شظايا العدم. نظر بطرف عينه الكليلة؛ فأمكنه أن يرى ذلك الخنجر الذي غرسه منذ سنوات طويلة. ينتظر هناك بين الجليد، والصدأ يغطي حوافّه، وكأنما يدعوها لفعلها."

"وهل **فعلها؟"**

بعد لحظة صمت، قالت أمها:

"للأسف نسي أن بينه بين القرب من حبيبته لحظات، ونسي كلمات الحكيم، ونسي وجوده ذاته. فقط تجسدت رغبته الهائلة في الانتقام. مدَّ يده اليسرى للخنجر، وكله عزم على أن يغرسه في عنق القاتل الأثيم. لكنه أيضًا نسي-وما أكثر ما ننسى-أنه لم يعد هو كمان كان. مجرد جسد هزيل تسري فيه روح الفناء. لكن بصحوة موت أخيرة قبض على الخنجر، وحاول انتزاعه. كانت حركته أبطأ مما ينبغي، وكان الأسد أسرع مما ينبغي؛ فقد قفز.."

هنا وثبتْ الفتاة لحضن أمها، التي ابتسمت، وقالت وهي تهدئها:

"رفقًا يا حبيبتي. إنها مجرد حكاية."

" بعض الحكايات تؤلم أيضًا."

همستْ:

"أحيانًا يكون الألم مطلوبًا لكي ندرك حقيقة ما"

ثم أعادتها لجلستها الأولي، وأكملت:

"المهم أن الأسد أنشب مخالبه في عنق العجوز الهرم. سالت الدماء من الثقوب الغائرة في جلده، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أمكنه أن يرى شيئًا عجيبًا، لا يعرف إن كان حقيقة أم هي هلوسة ما قبل الموت."

"ماذا؟"

"رأى الأسد يتراجع بفم مغرق بدمه، ثم بدأ يتحول بالتدريج، ولبدته الضخمة الخشنة تنزوي، تدخل في ثقوب جسده، ثم يستحيل رأسه لآخر أصلع نحيل، تزينه عينا الحكيم."

شهقت:

"الأسد هو نفسه الحكيم؟"

قالت أمها، وهي تضربها برفق على ظهرها:

"وما أدراني يا شقية؟"

قالت باعتراض:

"ألستِ أنتِ من تحكين؟ المفروض أنكِ تعرفين كل شيء عما تتحدثين عنهم."

"ليس بالضرورة."

همهمت معترضة:

"هذا الكلام لا أفهمه."

"لكنكِ تريدين معرفة ماذا فعل الأسد/ الحكيم بالعاشق التعس."

"وماذا سيفعل بعد أن قتله؟ لقد غدر به."

"ربما. لقد اقترب منه وقال برفق: لم تفهم. أليس كذلك؟ من أجل أن توصل حبل قلبك بمن تحب، لابد أن تقطع كل أمل فيه."

انغلقت عينا العاشق. تسربت الدماء بغزارة من جسده. كانت دماء كثيرة، كثيرة جدًا، وهي تتحرك بنشاط عبر الشقوق الجليدية، تحوِّل المكان للوحة قانية مُترعة بالأحمر والأبيض. يواصل الدم طريقه، كمن يعرف إلى أين سيذهب، وفي النهاية يتوقف أمام شجرة الصنوبر العتيقة، ذات الجذع المنبسط لأمتار عديدة على الأرض، والفروع اللانهائية التي تنتشر قرابة نصف كيلو على قمة جبل الثلج. راحت الدماء تنزلق للجذور، تتشربها بنهم، تتراقص قليلًا، ثم تهدأ. نظر الحكيم إليها، وقال بتؤدة وشجن يتسلل لصوته:

"ما أضخم شجرة المحبين."

***

فجأة صدرت تلك الحركة الخافتة بالقرب من النافذة. التفتتْ الأم إلى مصدرها بقلق، بينما توترتْ الفتاة بسبب ذلك الخوف الذي راح يطلّ برأسه الوقح وسط ذلك السكون المهيب، الذي لا يقطعه سوى صوت أمها الدافئ.

سألتْ:

"ماذا يحدث يا أمي؟"

"لا شيء يا حبيبتي. لا شيء. ربما اصطدم شيء عابر بزجاج النافذة. انتظري هنا، حتى أرى حقيقة الأمر، كل شيء سيكون على ما يرام يا حبيبتي."

قالت المقطع الأخير بحنوّ، ثم غادرتْ الحجرة. كانت ترهف سمعها جيدًا، وهي تهبط الدرج بحذر. على بعد أمتار كانت ابنتها تتبعها دون أن تنتبه إليها. خطواتها لا تكاد تُسمع، لكن دقات قلبها كانت على العكس؛ تركض مصدرة صوتًا صاخبًا في ذلك الفراغ الليلي الموحش. تخطو أمها إلى المطبخ، وهي تعرف أن ثمة سكينًا ضخمة مهيبة تصلح كسلاح بالداخل. تهتف بها أمها في صرامة، وقد لاحظت تلصصها:

"نهى. عودي لحجرتك."

وفي اللحظة التالية برز أحدهم من العتمة.

***

الفصل الثاني

تجلس خلف المكتب الصغير بوجه جامد، تقوم بأخذ الطلبات، ومحاسبة الزبائن. يقترب منها أحدهم، وعيناه تفضحانه؛ فتعبس بوجهها. لو كانت النظرات تقتل لكان الرجل قد تحوَّل إلى غربال بشري.

"الزبائن يقلّون يومًا بعد يوم."

برز المدير من مكان ما بكرشه الضخم، ووجهه المتذمر، وفمه الصغير، وبدا من وقفته العصبية القلقة أنه رجل قصير الفتيل.

هزَّتْ رأسها؛ فرمقها بنظرة تضطرم لهبًا، وقال:

"بعضهم يشكون منكِ"

"وماذا فعلتُ لهم؟"

تمتمتْ بها، وهي تعطي أحدهم بقية نقوده. انتظر المدير حتى انصرف، ثم قال بصوت هامس، علت نبرة الغيظ فيه:

"ألم أخبركِ من قبل أن تُحسني من سلوككِ مع الزبائن."

"إنهم أوغاد وقحون. لا تتوقع مني أن أدللهم."

لوَّح بكفه:

"بعض اللباقة لن تضرَّ. كل ما أطلبه منكِ أن تبتسمي فقط. هل هذا شيء صعب؟"

لم تجب. نظرة ثلجية نفذت من عينيها الواسعتين؛ فبدأ يلين.

"أعلم أنكِ ما زلتِ تعانين من حادث مصرع أمكِ منذ سنوات قليلة، لكن الحياة لا تنتظر أحدًا"

تمتمت:

"بالنسبة لي قد توقفتْ تمامًا."

أشار للخارج:

"لستِ وحدكِ. المدينة أصابها الجنون."

نظرتْ إلى حيث يشير؛ لتجد مشهدًا مألوفًا: رجل ينشب أصابعه في رقبة آخر. قالت بضجر:

"هذا متوقع. هذا العالم لن يصير رائعًا إلا لو خلا من البشر الذين يقيمون على سطحه."

تراجع للخلف وهو يتمتم:

"يا ساترا!"

ألقتْ عليه نظرة ساخرة. ثم عادت ببصرها ترسله من خلال باب المطعم المفتوح؛ لتجد أن الشجار قد تزايد، والصخب بدأ يفعم الهواء برائحة عصبية مقيتة، ثم أتى شرطي نحيل، بدا عليه الخوف قليلًا، وهو يحاول أن يتماسك.

" ما الذي يحدث في هذه المدينة التعسة؟"

قالتها لنفسها، وهي تبدو مشدوهة بذلك الجنون الذي يغرس أظافره الوحشية في جلود الناس. كمّ من حادثة حدثت في المطعم، لأتفه الأسباب، وكادت الدماء تجري أنهارًا. صار

البشر أكثر عرضة للغضب، وعصبية شديدة تبدو في وجوههم المحتشدة بالدم.

كانت الساعة تقترب من السادسة. ظلال الشمس الغاربة تلقي بأشعتها على باب المطعم الزجاجي. ثمة وحشة باردة قادمة تكشر عن أنيابها تشعر بها تقترب منها رويدًا؛ بالقرب من قلبها.

ثم أحسَّتْ بشعر ذراعيها ينتصب بتوتر. ثمة من يُحدِّقْ إلى ظهرها. تنظر بسرعة؛ فتجد المدير يقف على باب مكتبه، يرمقها بغيظ غريب، وهو يقف على باب مكتبه. ماذا دهاه؟ يقترب منها بخطوات بطيئة مترنحة. وجهه كما هو، يشبه سمكة ميتة مسطحة، خالية من الدفء؛ فقط الغضب.

كانت الدماء الداكنة تتحرك بعصبية تحت جلده الأبيض؛ كوحوش صغيرة تحاول الخروج إلى عالم جديد مختلف.

"سيادة المدير؛ مالك؟"

لم ينطق الرجل بكلمة. كل ما فعله أن انقض عليها بسرعة فظَّة، وهو يمسكها من ذراعها، ويهمس بصوت فحيحي:

"إلى أين؟"

قالت، والألم يتصاعد من موضع قبضته الغليظة المغروسة في اللحم إلى بقية جسدها:

"هل جننت؟ دع ذراعي."

"لكم تضايقتني يا فتاة؛ بوجهكِ الحزين المنكسر، وعينيكِ العنيدتين. لماذا يلقون بأمثالك في طريقي؟ لكي يستغلوا طيبتي نحو المحطمات أمثالك؟"

"أخبرتك أن تدع ذراعي أيها المختل."

تبحث ببصرها عن منقذ؛ فلا تجد. يبدو أن شجار الخارج قد تفاقم، وجذب إليه روّاد المطعم القليلين بطبيعة الحال. إنها بمفردها معه، لا تعرف كيف تتصرف، ولا تعرف ماذا يريد.

"منذ رأيتك وأنا أشعر بالعتمة المتوغلة بداخلك. ذلك السواد الطافح من الداخل، البارز كختم على وجهك. أتظنيني لا أعرف كيف أُميِّز التعاسة والشعور بالذنب عندما أراهما؟ لكن أخطر ما رأيته ذلك الخواء المرعب بداخلك. السبب الوحيد الذي جعلني أقبل توظيفك أيتها البائسة هو ذاك. ماذا تتوقعين مني بالضبط؟ ماذا تتوقعين من رجل طيب القلب، نقي السريرة يعرف بأن فتاة مثلك رأت أمها تلقي مصرعها على يد ذلك اللص دون أن تبدي حراكًا. لابد أنه شعور رهيب رؤية أمكِ وهي تنزف، تخبركِ برفق بأن كل شيء سيكون على ما يرام."

كانت تبكي. بدون صوت، وقد انهارتْ مقاومتها. جثتْ على ركبتيها، وقد تحولت لحطام بائس.

"كفى. كفى أرجوك."

راحت تقولها بتوسل، أما هو فقد تراجع للخلف، وكأن ضعفها قد غذَّي قسوته؛ فارتوتْ. تركها، انساب كالظلّ لمكتبه، بينما هي تواصل بكاءها، وقد عرفتْ في تلك اللحظة تحديدًا أن القسوة لا حدود لها في بني البشر.

استغرقتْ دقائق، ثم نهضتْ، وقد أحنتْ رأسها، تحمل حقيبتها في كتفها، وبدا أن عمرها قد زاد بضع سنين، تقول هامسة قبل أن تعبر الباب الزجاجي:

"نعم. سيكون ذلك الكوكب جميلًا لو خلا من ساكنيه."

راحت الجملة تنمو في ذهنها بشكل تتابعي، تغرس جذورها في جمجمتها، وبدأ الكون يتلون بلون قاتم بدا متوافقًا مع الظلام الذي راح ينسحب على الوجود.

الشمس غابت منذ دقائق، وموجة برد راحت تتحرك ببطء في الشوارع التي تحطمت معظم مصابيحها من جرَّاء المشاجرات التي حدثت في السنوات القليلة الماضية؛ لدرجة غدت فيها أشبه بمناطق خربة لا توحي بالأمان؛ حيث من الممكن أن يخرج منها أي شيء في أي لحظة، جالبًا معه خطر الموت.

لذا فقد كانت تسرع الخُطى، تحاذر أن تنظر يمينًا أو شمالًا، ترجو أن تصل سريعًا للبيت البارد؛ لتواجه نوعًا آخر من الخوف.

كانت تمرُّ بجوار سور خرساني قديم، متشبع بالرطوبة، يقف بوجهه كالحًا، كأنه يمارس دور البلطجي الصامت الذي يخيف الفتيات الحمقاوات التي تسرن بمفردهن بعد الغروب، عندما رأت تلك القطة.

قطة سوداء متسخة، تتكوَّر على نفسها، وهي تحاول أن تجد لها شقًا في الجدار يحتوي جسدها النحيل، لكن الأمر كان صعبًا فيما يبدو برغم مرونتها الشديدة.

كادت تكمل سيرها دون أن تتوقف؛ فما أكثر قطط الشوارع، لكن مع موجة البرد الثقيلة التي راحت تجتاحها، وتجعلها تضمّ المعطف القديم حول جسدها جعلتها تتوقف بعد أن تجاوزتها بأمتار. عادت مرة أخرى إليها؛ فنظرت إليها القطة بعينين تمتلأن بالأسى والحزن، وهي تموء بشكل لا يمكن رفضه.

اقتربتْ منها، وأخذتها في حضنها بحذر، خشية أن تقوم القطة برد عنيف يشبه ذلك الجنون الذي مسّ الآخرين. استكانت القطة لصدرها، وأراحتْ رأسها الصغيرة على صدرها تبتغي الدفء؛ مما جعلها تبتسم.

الحقيقة أنها أول ابتسامة في ذلك اليوم، بمعنى أدق: إنها أول ابتسامة حقيقية منذ أمد بعيد. واصلت طريقها، وهي تنظر حولها جيدًا، متحفزة أن يخرج أحدهم ملوحًا بسكينه، لكن شيئًا لم يحدث في ذلك اليوم من حسن حظها.

قبل أن تلج للمنزل مرّت على سعيد البقّال، واشترت طعام العشاء بالإضافة لكيلو لبن للقطة. في المنزل وضعتها في صندوق كرتوني ضخم بجوار باب الشقة، ووضعت لها الطعام، وراقبتها وهي تلعق السائل الأبيض بلهفة الجوعى.

راحتْ تتجول-كعادتها-في المنزل. نعم، رحلت أمها ولم ترحل. عبقها يفعم الأجواء، وسحرها يسكن كل ذرة هواء. هنا كانت تقرأ، وهناك كانت تتحدث بحماس، ويداها تقومان بالطبخ بمهارة، بينما تجلس هي إلى مائدة الطعام تقوم بعمل واجباتها المدرسية، تختلس النظر لأمها؛ ما هذا البهاء الذي ينبعث منها؟

قطعتْ القطة عليها حبل أفكارها وذكرياتها عندما تمسحت بساقها. تلتفت إليها، وتقول هامسة:

"يبدو أننا سنصير صديقتين أيتها العزيزة. هل تعلمين أنه لا يوجد لديِّ أصدقاء؟"

***

في صباح اليوم التالي، وبالقرب من شجرة صفصاف أثيرة لديها-تذكرها بحكايات أمها-جلست تبكي بصمت. مرة أخرى يحدث ذلك الأمر، دون أن تتخذ قرارًا بشأنه. مرة أخرى. وممماز زاد من ألمها ضوء الشمس الحارق، الذي يؤذي عينيها الحساستين تجاه النور.

"لماذا تبكين؟"

كانت تقف هناك. ترمقها بعينين واسعتين، وابتسامة خبيثة مراوغة على شفتيها. ارتبكتْ. قالت بصوت أجشّ:

"ماذا تريدين؟"

للحظة بدا أن الفتاة سوف تهزّ رأسها، ثم تنصرف. لكنها لم تفعل. في الواقع لقد اقتربتْ منها، ثم جلستْ بجوارها دون أن تستأذن. زاد ارتباكها أكثر.

"اسمي هدير."

مدَّتْ يديها إليها تريد مصافحتها. بدت مترددة، متوترة. هذه سنتها الثالثة في الكلية، ولم يقم أحد بالتعرف عليها منذ قدمت إليها. ما الذي جدَّ في الأمر؟ صافحتها بيد ترتعش، وهو لم يفتْ على نظر الجالسة بجوارها.

"لماذا تبكين؟"

مسحت دموعها، وقالت بذات الصوت الغليظ المرتبك:

"لا أبكي."

أشارت بإصبعها، وقالت:

"أليست هذه دموع؟"

همست بانكسار:

"بل آلام."

ثم تذكرتْ بأنها فتاة غريبة تقتحم عليها خصوصياتها المقدسة؛ فاستعادت نفس الغلظة إياها:

"ماذا تريدين؟"

قالت بسرعة:

"لا شيء"

ثم لوحَّتْ بيدها، والابتسامة الخبيثة إياها تعود مرة أخرى إلى شفتيها:

"هل هو ذلك الدكتور مرة أخرى؟"

نظرتْ إليها في دهشة. ثم في حرج، ثم في غضب. انفعالات متتالية أخذت كل واحدة منها عدة ثوان، وبعد ما يقرب من دقيقة، همهمتْ:

"ماذا تريدين؟"

تجاهلت الفتاة سؤالها، وقالت وهي تغمض عينيها بطريقة حالمة:

"إنه مشهور بإزعاجه للطلبة؛ وخاصة ضعفاء الشخصية. لقد فعلها معي في عامي الأول هنا. لقد حاول أن يُسفِّه من رأيي أمام الحاضرين، ويقلل من شأني. إنه لزج كذبابة، سمج كأبو قردان"

ابتسمتْ على الرغم منها للتشبيه الذي لا علاقة له بالواقع أصلًا، وبدت ابتسامتها غريبة على وجنيتها المصقولتين بفعل الدموع، وقالت:

"لكن وجهك يقول بأنكِ أكبر من سن طالبة جامعية."

تنهدت الفتاة بضيق:

"أنا فتاة فاشلة في دراستي. أمقت التعليم وأهله. لو سألتني عن أمنيتي؛ فسأقول لكِ عالم موازٍ لا توجد فيه جامعات."

ضحكت نهى. على الأقل هذه فتاة صريحة مع نفسها.

سألتها بلهفة:

"ماذا فعلتِ مع الدكتور؟"

قالت بخبث:

"لقد أخطأ في اختيار الشخص الصحيح"

كررت في إلحاح، وكأنها تستمع إلى قصة مشوقة، كما كانت تفعل مع أمها الراحلة:

"ماذا فعلتِ؟"

أجابتها بسرعة:

"في ذلك اليوم لم أفعل شيئًا مباشرا. فقط كتمتُ غيظي، وجلستُ في مقعدي دون أن أبدي رد فعل مناسبًا، لكن الدم المحتشد في وجهي كان ينبئ عن غضب عارم بداخلي يضطرم كنار موقدة. حسنًا، بعد انتهاء اليوم، غادر الدكتور المحترم مبنى الكلية متجهًا إلى المرآب عندما رأى سيارته في أسوأ حالة"

"ماذا؟"

هزَّت هدير كتفيها بخبث:

"يبدو أن أحدهم قام بإفراغ الإطارات، وتحطيم الزجاج، وسكب بعض البنزين على المقاعد الخلفية."

ضحكت من قلبها. شيء ما راح يزيل بؤسها بمكنسة كونية عملاقة.

"من بعدها توقف عن مضايقتي"

"هل تريدين القول بأن أفعل مثلك حتى يتوقف ذلك الوغد عما يفعل؟"

رفعتْ يديها مبتسمة:

"أنا لم أقل شيئًا كهذا."

ثم نهضتْ:

"صباحك جميل أيتها العزيزة. أرجو ألا أكون قد ضايقتك بدوري"

تمتمت:

"لم تفعلي."

قالتها بتلقائية، مما جعل هدير ترمقها بصمت. هي نفسها كانت أكثر من مندهشة. قالت هدير، وهي تلوِّح بيدها:

"فلتكن هذه بداية صداقة جميلة أيتها العزيزة"

"اسمي نهى"

"اسم جميل"

وغابت عن أنظارها.

***

الفكرة شيء عنيد؛ ما أن تولد حتى تأبي أن تندثر؛ إنها تولد من أجل أن تبقى. وكانت ثمة فكرة واحدة تسيطر على ذهن الفتاة، وهي تحدِّق إلى القطة التي راحت تتناول هذه السمكة المشوية الضخمة، الموضوعة في طبق أمامها. لشدَّ ما تغيرت؛ إذ صارت أكثر حجمًا، وقد بدت علامات الراحة والصحة عليها.

"ما رأيكِ يا قطتي الحبيبة في الأمر؟ هل ترين رأي المدعوة هدير؟"

هنا حدث شيء طبيعي يحدث بين الفينة والأخرى. انقطعت الكهرباء لثوانٍ، وفي تلك الفترة القصيرة جدًا أمكنها أن ترى عيني القطة تتألقان في الظلام.

هي تعرف شيئًا عن رؤية القطط في الظلام، وأعينهم التي تتقد في الظلمة، لكن لوهلة ظنت أن الأمر مختلف مع هذه القطة تحديدًا، وكأن ثمة شعاعًا غريبًا تدفق من كرتي عينيها المتوهجتين، وأغرقها في نهره، ثم عادت الكهرباء مجددًا.

انتفضت في جلستها، القطة تتأملها ببراءة، ثم تواصل طعامها. ابتلعتْ ريقها. لابد أنه وهم. هذه الأشياء تحدث.

انزلقتْ في فراشها، وأغمضت عينيها، وسرعان ما راحت في النوم.

كم نامت بالضبط؟ لا تدري حقيقة، لكن شيئًا ما جعلها تنتبه. شيئًا ما جعلها تعتدل في فراشها، قلبها يخفق بقوة، لدرجة

تجعلها تكاد تسمع دقاته بوضوح، وكأن هذه الدقّات تعيد إليها ذكري ضبابية حزينة، تريد طمرها في سابع أرض وبأكثر ما تستطيع.

شعرتْ بتيار الهواء البارد يجتاحها. يُغرق غرفتها في وحشة مزدوجة. هي متأكدة بأنها أغلقت النافذة قبل نومها؛ بالأحرى هي لا تفتح النافذة أصلًا.

شعرتْ بذلك الشيء اللزج. مدت يديها تنزع الغطاء الصوفي الخشن المحبب إليها عن جسدها، وهنا أمكنها أن ترى بقع الدم بوضوح.

***

الفصل الثالث

تجلس خلف مكتبها الصغير كعاملة "كاشير" بالقرب من الباب الزجاجي العملاق، حائرة مرتبكة، تنظر لكفيها كل عدة ثوان، وكأنها تريد التأكد أن الدم الذي علق بهما قد اختفى.

تتذكر وقفتها أمام الحوض في الحمَّام، تغسلهما بهستيريا، الدم يتدفق منهما، كأنما هو نزف، أو جرح بعمق الكون داخلها، أو كأنما وجدت آلامها طريقة ميتافيزيقية لتتجسد في الحاضر، حيّة.

تتذكر وقفة القطة، وهي تمسح مخالبها بلسانها، ترمقها صامتة على عتبة الباب. تنفخ بضيق، وهي تواصل غسل الدماء. من أين أتت؟ هل جُنتَّ أخيرًا؟ قالت لنفسها: أنها مسألة وقت ليس إلا في ذلك الجحيم البارد الذي تعيش فيه.

كانت مضطرة للعمل يوم الجمعة أيضًا؛ ففي يوم الإجازة يكثر الزبائن، وبالتالي تكثر الحوادث. اقترب زميلها حسن وقال:

"ألا تلاحظين أن المدير غير موجود؟"

كانت عيناه تلمعان على نحو غريب، لكنها لم تكترث.

"نحن محظوظون إذن. مغيب ذلك الوغد يسعدني دومًا."

"لقد ضربه أحدهم في الليلة الماضية."

بدأت تهتم الآن. توجِّه إليه عينيها؛ فيقول بحماس أكثر، وإن انخفضت نبرة صوته حتى صارت أقرب للهمس:

"يقولون إن ثمة من هاجمه ليلًا. أنتِ تعلمين أن زوجته مسافرة لابنتها بالخارج، وهو يعيش وحيدًا. هناك من تسلَّق شجرة تحت نافذة بيته، ودخل حجرته، وقام بتحطيم وجهه في الظلام."

ابتلعتْ ريقها. أيمكن أن...؟

"وهل. هل..؟"

"هل أنتِ بخير؟"

"وهل أمسكوا ذلك اللص؟"

هزَّ كتفيه:

"كان الظلام دامسًا إلا من ضوء مصابيح الشارع المواجه لنافذته المفتوحة."

"إذن، فقد هرب؟"

"هرب، لكنه لم يكن لصًّا بكل تأكيد. لقد قام بمهاجمته ومزَق وجهه. مسعد يقول بأن حالته النفسية أسوأ من الجسدية. ذلك الرجل لن يطأ المطعم بقدميه حتى تشفى جروحه تمامًا"

وغمز بعينه:

"وهذا من حسن حظنا. نستحق راحة من ذلك الطاغية."

كانت مرتبكة أكثر، غارقة في هواجسها القاتمة.

هل من الممكن أن...؟

***

تنظر لعينيِّ القطة. تمتمت:

"ما الذي يحدث لي أيتها العزيزة؟ ما الذي يحدث لي؟"

اندست تحت الغطاء، بعد أن تأكدتْ من إحكام النوافذ، وقالت لنفسها ساخرة بأنها تخلصت من أكبر شخص مؤذٍ على هذا الكوكب؛ فلتسترح إذن.

لكنها عندما استيقظت قبل الفجر بقليل، كان جسدها غارقًا في الدم أيضًا. أسرعت الى الحمَّام تنظف نفسها، وهي تبكي بجنون، بينما القطة تنزلق أكثر تحت الغطاء ترمقها بعينين صامتين لا تقولان شيئًا، أو تقولان كل شيء.

ظلَّتْ متكورة على نفسها حتى أشرقت الشمس، وقد جفَّتْ دموعها. موقف كهذا كانت أمها سوف تعطيها نصائح قيِّمة تخرجها منه، لكنها رحلت؛ وإذن فهي وحيدة في هذا العالم.

اتصلت بالمطعم بيدين ترتجفان، وهي تتوقع أن تسمع بأن صاحب قد تم اجتزاز رقبته هذه المرة، لكن هذا لم يحدث من حسن حظها. بدأتْ تنتعش قليلًا، لكن هذا دام لدقيقة على الأكثر قبل أن يربّد وجهها مجددًا: إذا لم يكن هو المدير؛ فمن؟ وفي الكلية عرفت الإجابة. قالت المدعوة هدير، وعيناها تلمعان بنشوة:

"يُقال بأن الدكتور ماجد وجد في منزله، وقد مزَّق أحدهم وجهه."

ارتجفتْ. إذن فهذا هو جواب سؤالها. المدير أولًا، ثم الدكتور ماجد ثانيًا. يبدو أنها تنتقي أولئك الذين يحيلون حياتها لجحيم؛ لتردَّ لهم ما فعلوه بها.

كان يعيش وحيدًا في فيلا ورثها عن والده على أطراف المدينة، ولطالما صدّع طلاّبه بجمالها وفخامتها. كان من السهل الوصول إليه إذن، وعبور السور، ودخول حجرة نومه وهو يغطّ، ثم. حدث كل شيء بسرعة. لابد أن كل شيء حدث بسرعة. كادت تغرق في هواجسها، وهي لا تريد أن تغرق. تريد أن تُلهى نفسها بأي شيء. وهنا نظرت إلى هدير، وقالت:

"ما رأيك نتناول الغداء معًا في بيتي؟"

***

"إنها مكتبة عملاقة."

قالتها هدير بانبهار، وهي تقف أمام جدار المكتبة الضخم. قالت بفخر:

"كانت أمي قارئة نهمة."

قالت هدير، وهي تشير للكتب:

"الجواب يتضح من عنوانه."

قالت بحزن:

"لو قابلتها كنتِ ستحبينها حتمًا."

تمتمت هدير:

"فليرحم الله كل الأحبة الراحلين"

"آمين"

ثم قالت بشرود:

"أتذكر كيف كانت تعلمني هذه الرقصة الإسبانية، وهي تقوم بتشغيل مقطوعة موسيقية تملأ المنزل بالجنون."

قالت هدير مبتسمة:

"رقصة إسبانية. أنت ترقصين؟"

"تقول أمي إنها رقصة لأولئك الذين يولدون من جديد، يتحسسون العالم الجديد برفق، يريدون ألا يضيعوا في الزحام، ويفقدوا هويتهم كبشر."

"لكنى لا أتخيلكِ وأنتِ ترقصين."

بدا عليها الخجل، وكأنها تريد اتخاذ قرار، ثم قال وهي تنهض بحماس:

"سأريكِ كيف أفعلها"

ونهضت بحماس، وقامت بتشغيل شريط قديم دسته في جهاز تسجيل عتيق؛ فانسابت الموسيقي في فراغ المكان، وراح الفتاة ترقص ببطء. تتقدم بخطوة للأمام. خطوتين للخلف. تتحرك يمينًا. شمالًا، تنظر لأعلى، كأنها تنتظر شيئًا ما، أو شخصًا ما.

بدت هدير مشدوهة بما تراه.

كأنه السحر.

ثم توقفت الفتاة، وجلست بإحباط. كأن الرقصة ذكرتها بما هو مطمور في غياهب الماضي.

حلّقت لحظة صمت حزينة في فراغ الحجرة، ثم قالت هدير بمرح، لا تدري إن كان حقيقيًا أم مزيفًا:

"ألن نأكل اليوم؟"

ابتسمت:

"دقائق، وسيكون الطعام جاهزًا"

"دعيني أساعدك"

وقفتا في المطبخ تعدّان الطعام. كانت هناك روح من البهجة تغمر المكان. تعيد إليه الدفء المفقود. شعرت بهذا جيدًا؛ فتورد خداها فرحة، وهي تنقل الطعام من أواني الطهي إلى الأطباق. على المائدة كان الحديث يتخذ منحي أكثر حميمية ودفئًا.

غمزت هدير بعينها:

"على الأقل الدكتور لن يتسبب في إزعاجك بعد اليوم."

ارتبكتْ؛ فقالت هدير بسرعة، وهي تأكل بشراهة:

"لا تشعري بالذنب. نحن لا نعيش في الفردوس المفقود هنا، على الأرض. هذا العالم القاسي الذي نعيش فيه يحتاج لمبدأ القوة حتى يعتدل ميزانه"

"أمي كانت تقول إن لكل شخص فردوسه وجحيمه"

"وأين يكون ذلك؟"

أشارتْ لقلبها:

"هنا."

قالت بتحفظ:

"لقد كانت أمك سيدة حكيمة حتمًا"

هزَّت رأسها. برغم رحيلها؛ فما زالت موجودة. قالت هدير بحذر:

"لكن هناك أسطورة عن وجود فردوس بالفعل على هذه الأرض."

تمتمتْ:

"مجرد حكايات. لقد كانت أمي تحدثني كثيرًا عن ذلك المكان البريء، الذي لم يتلوث بشوائب وخطايا البشر. مكان يوجد خلف حاجز المرئي، مبهر في كل شيء، علمًا وأخلاقًا."

"حقًا؟"

ابتسمتْ:

"لقد كانت أمي ذات خيال جامح. ربما حكاياتها هي ما أبقتني حية حتى اليوم، وإلا كان الجنون قد أصابني."

وألقت نظرة على ضيفتها:

"أو يمكنكِ القول إن الجنون أصابني بالفعل."

نظرة متساءلة في عيني هدير؛ جعلتها تقول بارتباك:

"قصة كئيبة، لا أريد أن أصدعك بها"

قالت وهي تنهض:

"من قال هذا؟ هل لديكِ شيءٌ يُشرب؟"

قالت بحذر:

"مثل ماذا؟"

لوَّحت بيديها ضاحكة:

"ما الأمر يا نهى؟ هل أقصد خمرًا مثلًا؟ أقصد عصائر."

أشرق وجهها.

"آه، يوجد البعض منه في الثلاجة"

وهمَّت بالنهوض:

"دعيني أعدّه أنا"

دفعتها هدير للجلوس مرة أخرى برفق، وقالت بامتنان:

"يكفي أنكِ أعددتِ هذا الطعام الرائع. منذ زمن طويل لم أتناول الطعام مع أحد. فدعيني على الأقل أعدّ لنا كأسي العصير".

غمغمت:

"عندما تقولينها بهذه الطريقة أشعر أنك تعدين خمرًا."

ضحكت هدير، وقالت:

"واضح أن أمكِ ليستْ صاحبة الخيال الجامح لوحدها هنا."

قالت نهى:

"البنت سرّ أمها."

هتفت هدير مبتسمة:

"أرجو أن يكون هذا صحيحًا."

قدمت إليها هدير كأسها، وهي تبتسم. ابتسامة مشرقة على وجهها، تنثر بعضًا من الأمن المفتقد. قرعا الكأسين معًا.

"في نخب الصداقة."

ابتسمت نهى:

"في نخب الصداقة."

وارتشفت من عصيرها، بينما عينا هدير ترقبانها بتركيز.

"ألم تشاهدي أحدًا يشرب عصيرًا من قبل؟"

قالتها بمرح، وهي تتراجع في مقعدها، محاولة أن تصل لمستوى الصديقة الجديدة، وخفة دمها. قالت هدير، وهي تضع كأسها جانبًا:

"لم أقدمه كأسًا لأحد منذ زمن طويل. فعلتها مرة مع شاب كنتُ أحبه."

"حسنة الحظ أنا إذن."

همست هدير بوجه متجمد:

"ربما. لا أعرف."

شعرت نهى برأسها تدور. ثقل عارم يُضاف بغتة لجسمها. خدر لذيذ يندفع في عروقها.

تمتمت بخوف:

"ماذا يحدث؟"

الآن، تشعر بجسدها يستقر، ذهنها يصفو، حواسها تشتد، وموجة من الدفء الكاسح تصول وتجول داخلها. ابتسمت.

كأنما وصلت للصفاء الذي يسعي إليه الجميع في رحلة حياتهم. اقتربت منها هدير، وهي تقرّب مقعدها منها، وقالت بصوت رخيم مشع:

"والآن يا صديقتي العزيزة. حدثيني عن ذلك الفردوس المفقود؛ متى سمعت عنه، وأين يوجد؟"

***

الفصل الرابع

قالت أمها:

"اقترب الحكيم من الفتي، وهو يلفظ أنفاسه. ما زالت الدماء تتدفق من جسده النحيل، وتأخذ طريقها إلى شجرة الصنوبر التي راحت ترقص من النشوة. انحني نحوه الحكيم/ الأسد، وأمسكه من جسده الفاني المتهالك، وراح يسحبه على الجليد ناحية حافة الجبل الثلجي. أنتِ ترين بعين الخيال دمه يتبعه ككلب وفيّ، يسيل من جروحه. كانت الشمس تميل للمغيب. درجة البرودة تهبط لما تحت الصفر. الأفكار نفسها في جوّ كهذا يمكنها أن تتجمد، وتعلن موتها. في ذات اللحظة التي كانت الشمس تختفي خلال التلال الثلجية البعيدة، كان الحكيم يُدلى بجسده، ويقول برفق:

"لو لم تفعل ما فعلته ما كنت ستبقي أنت. هناك دفقة من الحياة ما زالت موجودة، برغم العتمة، والوحشة، والوحدة المجنونة. دفقة من الحياة من الممكن أن تعيد جسدك من جديد، لكن هذا ليس هنا. أنت تحتاج لأن تذهب إلى الفردوس؛ حيث تلتأم أجساد وقلوب المحطمين أمثالك."

رمشت عينا العاشق التعس. هنا قال الحكيم بلهجة متشككة تطلب تأكيدًا:

"هل أنت موافق على الدخول لذلك الفردوس؟"

هزّ العاشق رأسه. قال الحكيم للمرة الثالثة:

"ستسقط من علٍ، سيواجه جسدك المحتضر آلام السقوط والرهبة والخوف المجنون. هل أنت مستعد لدفع هذا الثمن من أجل عبور الحاجز المقدس؟"

مرة أخرى ترمش عينا العاشق، مع إيماءة بسيطة استنفر قواه الغاربة -مثل تلك الشمس-من أجل أن يفعلها. هنا تنهد الحكيم، ودفع بجسده في الفراغ الثلجي. سقط العاشق. كانت قمة جبل الثلج تتباعد عن بصره بسرعة جنونية، وجسده يسقط، والهواء البارد يضربه بقوة، لدرجة أن دماءه تجمدت تمامًا، وهو يفكر بأنه لم يعد هناك ما يهمّ. حقًا هل يهم دخوله ذلك العالم الذي يتحدث عنه قاتل حبيبته؟ لكن ربما. ومع لكن وربما تولد عشرات الاحتمالات الجديدة، وربما يولد شيء آخر."

سألتها بفضول:

"وما هو يا أمي؟"

مررت أصابعها بين خصلات شعرها:

"الأمل يا حبيبتي. الأمل."

همست الصغيرة:

"الأمل."

ثم رفعتْ رأسها إلى أمها، وقالت:

"هل حقًا توجد سعادة في ذلك الفردوس؟"

أشارتْ أمها لقلبها الصغير، وقالت وهي تدفع إصبعها فيه برفق:

"المهم ألا يصير هذا معتمًا. لو صار معتمًا بالكامل؛ فسينتقل سواد القلب لكل الأطهار."

قالت بحماس:

"ولماذا لا يحدث العكس؟"

قالت أمها بإشفاق:

"الأمور لا تجري هكذا يا حبيبتي."

قالت محبطة:

"ولماذا لا تجري هكذا؟"

"أسئلتك كثيرة يا بنيتي."

"وهل هذا سيء؟"

"لا"

"هل سأجد إجابة عنها ذات يوم؟"

"ربما."

"أماه."

"نعم يا حبيبة قلبي"

"هل الفردوس موجود فعلا؟"

ابتسمت أمها، وقالت وهي تهمس في أذنها:

"لماذا لا تكتشفين هذا بنفسك."

بدت الحيرة على وجهها الصغير. ثم قالت:

"ماذا حدث للعاشق إذن؟ هل وصل للفردوس، وقابل حبيبته هناك؟"

قالت أمها متمهلة، وكأنها تريد توصيل رسالة خاصة إليها:

"حسنًا؛ الأمر يعتمد علي..."

قاطعتها بحماس:

"وهل يمكن أن نتقابل ذات يوم هناك بعد أن ترحلي؟"

كان السؤال مباغتًا. حدَّقتْ إلى وجهها الصغير، ومست بأناملها صفحته الناعمة، ثم قالت:

"لن نفترق يا حبيبتي، وإذا حدث؛ فهناك إمكانية أن نتقابل من جديد. فقط اتبعي النور أينما وجدتيه"

"النور؟ النور يؤذي عينيِّ يا أمي."

في البداية فقط، لكن بعدها ستلتقين بي هناك"

"هناك؟"

هنا صدرت تلك الحركة من الطابق السفلى؛ فرفعتْ أمها رأسها بتوتر. همست:

"انتظري هنا."

"ما الأمر يا أماه."

ابتسمت أمها:

"لا شيء يا حبيبتي. لا شيء. ربما اصطدم شيء عابر بزجاج النافذة. انتظري هنا، حتى أري حقيقة الأمر، كل شيء سيكون على ما يرام يا حبيبتي."

تنصرف أمها، ويغيب كل شيء خلف غلالة بيضاء، ثم تعود الرؤية حادة؛ بألوانها، وذلك الصخب الصادر منها، ومن ذلك المقتحم المجهول.

كان لصًا، معتم الوجه، يلوِّح بسكينه الحادة التي تقطر منها الدماء، بينما أمها مسجاة أرضًا، تحدِّق إلى فراغ مطلسم لا تراه، وهي وافقة على الدرج مذهولة، دموعها تسيل بصمت جليل، وكأن روح الحياة ذاتها تخرج مع كل قطرة تسقط.

تعود الرؤية إليها. تتوقف عن البكاء، وقد أدركتْ أن العالم الكالح الذي لا يوجد فيه أمها صار واقعًا عليها مواجهته، من حسن الحظ أن لديها هدير.

لكن أين هدير؟ أين ذهب؟ السكون يرفرف على المكان، وهنا شعرتْ بتلك الحركة خلفها، وقبل أن تستدير، انغرستْ سكين حادة بين ضلوعها.

***

الفصل الخامس

كان هناك الكثير من الألم، الكثير من الارتباك والحيرة، والشعور بالضياع، الكثير من الظلام. فجأة شعرتْ بمن يضرب وجهها برفق، وصوت مألوف يقتحم عليها عالم العدم الذي ترزح تحت وطأته:

"نـهى. نـهى. استيقظي. استيقظي يا حمقاء."

فتحت عينيها ببطء، وبدأت تستوعب العالم الوليد الذي خرجت إليه للتو. وجدت نفسها في تلك الحجرة الواسعة، وهدير تحدِّق إلى وجهها بلهفة. بدت مرتعبة، وقلبها يخفق بقوة بين جنبات صدرها. قاتلتها معها في حجرة واحدة. والأدهى أنها تقول، وقد لاحظت نظرة الخوف المتجلية بوضوح في عينيها:

"نـهى، إنـها أنـها. هدير؛ صديقتك المقربة."

كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة على عقلها، أنها وقاتلتها في مكانا واحد، والمصيبة أن ملامح وجهها لا تعبر أبدًا عن معرفتها بما فعلته سابقًا، وكأنها تحدِّق إلى وجه واحدة أخرى، تحمل نفس الوجه، لكن مع عقل وقلب مختلفين.

لكن الظواهر خادعة؛ كما خدعت من قبل، ودعتها لدخول بيتها، وقاسمتها الطعام، ومع هذا لم تتوان أن تغرس في جسدها خنجرًا حادًا شبع نصله بالمرارة والغدر، قبل أن يُشبع بالألم.

وعندما يكون المرء مع قاتله؛ فليهرب منه؛ فلن يتردد في اجتزاز عنقه تلك المرة، وهو ما فعله؛ إذ أنها اتجهت للباب، وساقاها تحملانها بالكاد، وصوت هدير المدوِّي يقرع أذنيها بلهجة محذرة:

"نـهى، لا تفتحي الباب."

لكنها فتحته؛ لتدخل يد سوداء تقبض على ذراعها بقوة آلمتها، وفي اللحظة التالية، غمر الحجرة ظلام من نوع مختلف؛ ظلام تشعر بأن هناك من يتقاسم معك حصة الأوكسجين، من يخفق قلبه مثلك رعبًا، من يتمنى أن تنقشع هذه الغمة بعيدًا، ويعود ضوء النهار.

وعندما فتحت عينيها هذه المرة كانت موجودة بتلك الزنزانة الرطبة الموحشة، وحولها عدة وجوه تلمع تحت أضواء الشموع، وكلها تبعث برسالة حزينة مخيفة؛ بأنها لن تغادر هذا المكان مرة أخرى.

***

كانت تجلس مستندة إلى الجدار الرطب، وهي غارقة في حالة كئيبة من الهواجس والتساؤلات، والألم. ذلك الأخير كان يمزق قلبها قطعة، قطعة، وهو يدور بشكل متواصل في أنحاء جسدها. كيف يمكن للنفوس أن تعيش من خلال التنفس عبر ثقب إبرة فحسب؟

"أنتِ جديدة هنا؟"

أتاها الصوت الحاد المرتجف من رجل نحيل، ذي لحية نصف نامية، وهناك نظرة رعب لا توصف تبدو في عينيه المذعورتين.

"ابتعد عني."

قالتها بخشونة، وهي تولي وجهها للناحية الأخرى من الجدار؛ لتصطدم عيناها بوجه امرأة، رمقتها بشفقة:

"يا لكِ من مسكينة. هل تظنين بأن لديكِ فرصة لكي تكوني منهم؟"

"ممن؟"

"هل تدعين الجهل والغباء؟"

بدت نظرة عدم الفهم على وجهها كدليل قوي على عدم معرفتها الفعلية بما تقصد. تنهدت هذه الأخيرة، وقالت بغيظ:

"عظيم. حتى البلهاء صار بإمكانهم أن يتقدموا لنيل شرف" ذوي القلوب المعتمة".

رددت الاسم الذي بدا لها رهيبًا:

"ذوو القلوب المعتمة؟"

قالت المرأة، وهي تضحك بخشونة:

"إنها بلهاء حقًا؛ لا تعرف أن السادة هم من أتوا بها إلى هنا."

"لا أعرف عم تتحدثين. أشعر بألم شديد في عظامي، وكأنني نمتُ لسنوات."

مالت نحوها المرأة:

"لعلكِ هكذا فعلا."

ارتجفتْ للفكرة. أيمكن أن يكون هذا حدث حقًا؟ تتذكر وجه هدير الآن؛ إنه وجه مثقل بالخطايا، متعب؛ هل كان ما رأته حقيقة، أم مجرد تخيلات؟

فجأة انفتح الباب، وأطلّ منه رجل. لا. لم يكن رجلًا، أو كان هكذا فعلا في الماضي. لا تعرف. مرآه أصابها بارتباك؛ ذلك الوجه الذي راحت عروق سوداء تنتشر فيه، وبدا أشبه بصخرة كالحة قديمة.

"موعد العرض."

قالها بغلظة، وهو يشير للجالسين بالداخل. في لحظات كانوا يقفون بحماس ورهبة، وكل واحد منهم يعدِّل هندامه، كأنه مقدم على مقابلة أحد الكبراء. بدأت تسير في الصفّ الطويل في ممر أكثر طولًا، حتى أنها تساءلت: أي مبني هذا الذي يحتوي على ممر بهذا الطول؟

الأضواء شاحبة، تلقي بنورها اليسير على الوجوه؛ فبدت الظلال أشبه بمجموعة من الموتى يقودهم شارون إلى سيده في مملكة هيدز المظلمة.

لكن أين السيد وسط كل هذا؟

وكانت نهى لا تفهم أي شيء يحدث حولها، لكن أحدهم برز من اللامكان، وبدا حميميًا بوجهه العادي، الخالي من العروق

السوداء، وبات أشبه بنغمة نشاز في سيمفونية كئيبة لا تبشر بأي خير.

وقف أمامهم، وأجال بصره فيمن حوله، ثم قال بصوت عميق، بطيء؛ جعلها تدرك السبب في تميزه؛ إنه صوت ذلك الشيء المخيف الغامض الذي تشعر به يمتزج بذرات الهواء نفسها:

"للقادمين الجدد لنيل شرف الانضمام لعصبة" ذوي القلوب المعتمة"، يكفيكم شرف التقدم، لكن لن يتم اختياركم جميعًا. قلة منكم سيتم اختيارهم، والبقية سينضمون لجيش مولانا، وهناك أشياء كثيرة يمكنهم أن يقوموا بها هناك".

ثم راح يقترب من الصفّ، وأمكنها أن ترى خوفًا حقيقيًا على الوجوه. أذهلها تصرفه الغريب؛ فقد راح يتشمم كل واحد من الواقفين بالصف بتأنٍ، ثم يتراجع برأسه للخلف، قبل أن يرفع يده بإشارة معينة، وعلى الفور يبرز أحد تابعيه ليأخذ لمن تمَّ شمُّه لمكان ما.

حان دورها؛ فبدت متوترة. تأملها للحظات، وراح يتشمم جسدها؛ مما أشعرها بالتقزز؛ ثم تجمد وجهه للحظات، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة حارت في تصنيفها، وهو يقول:

"ما اسمك؟"

"ن. نهى."

"أنتِ سعيدة الحظ يا نهى. هناك احتمال أن تصلحي للانضمام لذوي القلوب المعتمة، لكن القرار الأول والأخير بيد مولانا"

ارتجف جسدها بخوف من المجهول؛ فحتى الآن هي لا تدرك ما الذي يحدث بالضبط. رمقتها المرأة بحقد بالغ، شاركها فيه بعض الواقفين.

كادت تصرخ فيهم: ***ما المميز أن يصير المرء ذا قلبٍ معتم؟***

قال الرجل بهدوء:

"خذوها إليه في مكتبه. إنه ينتظر."

سألته برهبة:

"من الذي ينتظر؟"

قال بذات الهدوء:

"سيد القلوب المعتمة."

***

الفصل السادس

أخذوها لحجرة واسعة، وبرغم الأضواء الشديدة التي تسطع فيها، إلا أن ثمة ركن لم تصل إليه، فبدا معتمًا بشدة. وأمكنها من خلال بعض الضوء الشاحب المتسلل خلسة لذلك الركن أن تلمح أحدهم يجلس بسكون. تركها مرافقها، بعد أن أغلق الباب خلفها.

"اجلسي"

أتاها الصوت العميق المبحوح، وكأن شرخًا في حنجرة المتحدث، يمنع الكلام أن يخرج منه بسهولة. الكلمة أثار قشعريرة مفزعة بجسدها، وهي تبحث ببصرها عن مقعد وسط هذا الفراغ الموحش.

أخيرًا وجدتْ مقعدًا بجوار الجدار؛ فجلست ببطء، وبصرها معلقٌ بالعتمة الكائنة أمامها.

"أنتِ مليئة بالحزن."

شعرتْ بالدهشة. هل سيقوم بتحليلها؟ المفروض أنها تجلس أمام سيد القلوب معتمة ذاته. كانت الظلمة جديرة به؛ فهل هذا هو السبب الذي جعله يقول:

"حزن وظلمة أيضًا."

تمتمت:

"الأمر لا يحتاج لعبقري لكي تدرك هذا. أنا كائن تعيس للغاية."

"التعساء هم الجديرون حقًا ليكونوا منا."

ونظر من النافذة، على الرغم من أنها لم تر ملامح وجهه، وقال:

"هل ترين هؤلاء الذين يقفون في الصف، تخفق قلوبهم في أمل، يريدون السيطرة على حياتهم من خلال الانضمام للطرف الفائز والمسيطر، يعرفون-عن يقين-بأن المستقبل لنا. يريدون أن يحجزوا أماكنهم في المنظومة المقبلة"

تمتمت:

"لا أفهم شيئًا مما تقول."

نظر إليها، ثم قال بعد لحظة:

"لقد كنتِ في غيبوبة لفترة طويلة، ولم تدركي التغييرات التي حدثت في العالم. ثمة شيء حدث أطلق عقال الغضب والمشاعر السلبية في بني البشر، وحولَّهم لوحوش قصيري الفتيل يتشاجرون لأتفه الأسباب."

بدأت نهى تتذكر كمّ المشاجرات الرهيب الذي رأته قبل أن تسقط بسكين الخائنة هدير. لابد أنه تضاعف عشرات المرات. لابد أن العالم بالخارج صار خرابًا.

" هذا عالم لا أريد العيش فيه. سيغدو أكثر جمالًا لو خلا من ساكنيه."

شعرتْ بأنه يتأملها. لو كان للأفكار أصوات؛ لكانت الحجرة قد ضجَّتْ بالصخب الآن.

"أنتِ تريدين التخلص من الألم؟"

"لا أحد يستمتع بآلامه."

"جسدك ينضح بالألم. روحك تنزف ألمًا."

"هو ذاك"

"أتريدين التخلص منه؟"

"أتقدر على فعلها؟"

"أتقدرين أنتِ على دفع الثمن؟"

"الثمن؟"

"ليس مالًا. من أجل أن تتخلصي من الألم؛ فربما تفقدين شيئًا من آدميتك."

همست:

"آدميتي؟"

"المشاعر هي ما تعطي البشر هويتهم، والألم عنصر فعّال لا يمكن تجاهله."

قالت بتردد:

"هل سأتخلص من الألم بالكامل؟"

"بالكامل."

تقترب منه ببطء، ثم تسرع في خطواتها:

"افعلها إذن."

"أنتِ متأكدة؟"

"متأكدة. الآن أفهم سبب لهفة من معي ليغدو من ذوي القلوب المعتمة. إنهم يريدون التخلص من آلامهم. وأنا أيضًا أريد التخلص من آلامي. لقد صرتُ مخلوقة تعيسة، بائسة، تشكل خطرًا على الآخرين، تنطلق في الليل لتؤذيهم."

قال موضحًا:

"إنهم يريدون التخلص من آلامهم وكسب مستقبلهم. إنهم طماعون. من أجل أن يحصل أحدهم على واحدة، لابد أن يتخلى عن الأخرى."

تجاهلتْ مغزى جملته، وتشبثت بعرضه:

"افعلها إذن. ماذا تنتظر؟"

يقترب منها، تشمّ رائحة أنفاسه الثقيلة، يخفق قلبها بدون توقف، وعجلة متزايدة. يبرز إصبعًا رفيعًا ينتهي بظفر معقوف، ويغرسه في قلبها فجأة.

تصرخ بقوة، يتردد صدي ألمها في أرجاء المكان، يهمس في أذنها:

"بدأ قلبكِ يكتسي بالسواد. أوشك خمسه أن يغدو معتمًا. اكتمل الربع."

كانت تشعر بريح ثلجية مخيفة تنطلق بعروقها، وتجعلها ترتجف، وكأنها تقف في مكان انخفضت درجة حرارته تحت

الصفر بمراحل. الألم يأبى أن يتخلى عنها، حتى يلوِّح لها بيديه. فليكن هذا وداعه الأخير إذن.

يكمل:

"صار الآن نصف قلبكِ معتمًا."

في اللحظة التالية تحطّم زجاج النافذة، ودخلتْ عبره هدير، وهي تحمل سيفًا، غرسته في جسد سيد القلوب المعتمة.

أصدر خوارًا، بينما نهى تصرخ بدون توقف. تعالى صوت الخطوات المسرعة نحوهم، وهنا قامت هدير بضربها على مؤخرة عنقها بقوة؛ لتسقط بين ذراعيها فاقدة لوعيها.

كان سيد القلوب المعتمة يرقد أرضًا، والدم الأسود يسيل منه في خطوط سريالية.

قامت هدير بلفّ الحبل حول جسد نهى، ونزلت معها من النافذة برفق.

اعتدل سيد القلوب المعتمة، وقال بصوته المبحوح:

"ما أكثر تقاطعات القدر."

***

الجزء الثالث

الفصل الأول

استيقظتْ في ذلك الصباح البارد بمزاج منحرف، وشعرٌ مبعثر، وهي تغرس أصابعها فيه، حتى وصلتْ للقاع، تتثاءب، تتساءل عن هُوِّيتها. مرَّتُ بتلك اللحظة الشهيرة التي لا تعرف فيها اسمها، أو حقيقتها. لقد وجِدتْ لتوِّها الآن. ثم راحت الذكريات تتدفق ببطء، تتسارع، تعيد تخليق شخصيتها من جديد.

راحتْ تراجع جدولها اليومي في ذهنها. هناك الكثير من الضباب، عدم التركيز. تُحدِّق إلى السقف.

"هل خُلقت القلوب من أجل أن نعيش فقط، أم من أجل أن نعيش ونحب؟ أم أنها غير قادرة على الحب أصلًا؟"

قالت لنفسها هذا، وهي تتنهد.

تنهض لاستقبال يومها الجديد.

كانت أمها في المطبخ تعدّ الطعام، بينما أبوها يطالع الجريدة بتركيز. قالت مبتسمة:

"هل هناك جديد يا أبي؟"

رمقها من خلف نظارته الطبية:

"أخبار اليوم مثل الأمس. كل يوم شجار وعراك بين الناس."

قالت بمرح:

"على الأقل لم أركَ تتشاجر مع أمي بعد."

قالت أمها، وهي تضع الفول والبيض على مائدة الإفطار:

"مزاجك رائق هذا الصباح."

"إنه أول يوم لي في العمل بعد إجازة طويلة يا أمي."

"أرجو أن تعرفي مصلحة نفسك، وتوقعيه في شباكك"

"تقصدين المدير؟"

قالت بسرعة:

"إنه شاب وسيم، ولا أعرف سببًا يجعلك ترفضينه."

"لا أستريح معه. ثمة شيء مخيف في شخصيته."

"أنتِ جاحدة تتبطرين على النعمة."

ابتسم أبوها دون أن يعلق. قالت بذعر:

"أبي. هل ستسكت؟"

هزَّ كتفيه:

"إنها أمك."

قالت بذات الذعر:

"ليست إجابة."

نظرت أمها إلى السقف، وقالت وهي تغمض عينيها؛ لترى الصورة كاملة في ذهنها:

"أتخيل أنه عندما يعرفكِ جيدًا؛ سيسقط صريع عينيك."

قالت بضيق:

"هذا يحدث في السينما والروايات فقط."

قالت بحماس:

"وحدث مع أبيكِ ومعي."

قالت لأبيها:

"فعلًا؟"

هزَّ رأسه دون أن ينطق.

ضحكت، بينما تضع لقمة في فمها، وهي تتجه للخارج.

"أكملي إفطارك"

"لا يوجد وقت. سأتأخر على العمل"

***

اليوم الأول في العمل ملأها حماسًا، وهي تنتقل بين المكاتب الصغيرة الموجودة بالممر الطولي الكبير بمبني الشركة، لكن شيئًا ما أضيف لفورة حماسها تلك حينما رأته لأول مرة.

نعم، خُلقتْ القلوب من أجل أن نعيش ونحب أيضًا. صحيح أنه ليس حبًا؛ فهي لا تعتقد في الحب من أول نظرة، لكن ثمة شرارة قد انطلقت في عروقها فور أن رأته. شرارة تحتاج لوقت طويل حتى تشتعل.

عادي الملامح، نحيل نوعًا، لكن ملامحه تعطي دفقة أمان غير عادية، وهو ينتقل بدوره كالظلِّ، معطيًا هذا ملف أوراق، مع ابتسامة دافئة مشعة.

أثره الإيجابي بدأ يظهر مع كل واحد يقابله، وكأنه يملك طاقة سحرية غير مفهومة تنشر عبيرها في الأجواء. بشكل ما تقابلا في الطريق، ولا تعرف لما توقفتْ أو لما توقف هو، كل ما فعلته أنها ابتسمتْ ببلاهة، وهي تحدِّق إلى وجهه بوقاحة لم تقصدها.

بشكل ما توقف الزمن، وبشكل ما أيضًا راح قلبها يركض. يركض. يركض، حتى أنها وضعتْ يدها على قلبها، وهي تضغط عليه، وكأنها تريد أن يتوقف قبل أن يفضحها. الحقيقة أنه الوحيد الذي لاحظ هذا من حسن حظها أو سوءه.

"أنا هدير."

قالتها بصوت مرتجف.

"إيهاب"

قالها بصوت هادئ دافئ جعلها ترتجف على غير المتوقع.

"أنتِ موظفة جديدة."

"أول يوم لي"

"أنا سعيد الحظ إذن"

ابتسمتْ، ثم فقالت معتذرة:

"لديِّ الكثير من العمل"

أومأ برأسه متفهمًا:

"سنتقابل مرة أخرى حتمًا؛ فما أكثر تقاطعات القدر."

خفق قلبها. أيمكن أن يكون هو؟

***

عبد الحليم حافظ يشدو بأغنية ما، وهي شاردة تمامًا. تدخل أمها، وتقوم بخفض الصوت، حتى صار أشبه بالهمس الموجع، الممتلئ بالألم.

"هل هو الحب؟"

قالتها أمها بخبث، وهي تهمس في أذن ابنتها؛ فتنتفض هذه الأخيرة كأنما سري تيار كهربي غير متوقع في أوصالها.

"أمي. لقد أفزعتني."

"وأنتِ قد أدهشتني."

ثم قالت بلهفة:

"إنه المدير؛ أليس كذلك؟"

قالت بضيق:

"لا أعرف لماذا تسيطر عليكِ هذه الفكرة. المدير لم أره قط طوال الأسابيع الماضية."

"لكنكِ وقعتِ في الحب."

بدت مرتبكة؛ فقالت أمها في نفاذ صبر:

"من هو؟"

قالت بخفوت:

"اسمه إيهاب."

قالت بتشكك:

"موظف مثلك؟"

"أقدم مني قليلا"

ثم انفجرت:

"ولا أعرف لماذا تهتمين بهذه السفاسف؟"

"سفاسف! مثلك لا يستحق موظفًا عاديًا"

"إنه ليس موظفًا عاديًا. أخبرتكِ إنه أعلى منى درجة."

"لكنه ليس المدير."

"أماه. ماذا تريدين بالضبط؟"

"أريدكِ سعيدة."

"أنا كذلك، لكنكِ تفسدين فرحتي ببراعة."

"فليكن؛ سأخرس."

قالت بضيق:

"عفوًا. لم أقصد هذا، ولكنكِ..."

قاطعتها، وهي تغادر الحجرة:

"أنتِ وشأنكِ"

وتركتها تغلى من الضيق والغضب. لقد أفسدت فرحتها فعلا. طلبت رقمه؛ فأتاها صوته الذي لا تتخيل كيف كانت الحياة قبل أن تسمعه:

"على موعدنا غدًا؟"

"هل تسألينني؟"

وخيل إليها أنها تراه يبتسم في تلك اللحظة.

***

كان لقاءهما في إحدى الحدائق العامة. جلست على المقعد الخشبي، وهي تحمل طعامًا منزليًا في أواني خاصة به، موضوع في حقيبة بلاستيكية بجوارها، وهي تأمل ألا يتأخر كعادته.

لكنه لم يأت.

تنظر في ساعتها كثيرًا، ثم بدأ القلق يطلّ بوجهه القبيح، ويُخرج مخالبه الحادة المؤلمة، ويشرع في تمزيق قلبها.

أخرجت هاتفها المحمول، وضغطتْ الأرقام بتوتر، ومن الناحية الأخرى لم تتلق إلا ذلك الرنين المتواصل.

بعد مرور ثلاث ساعات؛ لم تجد مناصًا من أن تتجه لمنزله. كانت تعرف بأنه يعيش مع والديه، وأغلب الظن أنه لم يخبرهما بشأنها بعد. كانت وجهة نظره أن يريد شراء شقة أولًا، ثم يبدأ في اتخاذ خطوة فعلية، ولم يكن عندها مشكلة في ذلك.

لكن كيف تعلن عن نفسها؟

وقفت أمام الباب بعد أن ضغطت الجرس، متوترة بشدة، تغيِّر وضع خطواتها كل ثانية، وبدأتْ يداها في التعرق، هذا عندما ظهر والده. عرفت من أين أتي إيهاب بملامحه.

"هل تريدين شيئًا يا بنيتي؟"

قالها بصوت عذب مفعم بالدفء والراحة. الأمر لا يقتصر على الملامح إذن. بدت حائرة في تعريف نفسها، وحتى لا تقع فيما لا يجب الوقوع فيه، قالت بسرعة:

"أنا زميلة إيهاب في العمل"

أشرق وجه والده:

"هدير."

قالها أبوه بدهشة مرحبة، وهو يفسح لها الطريق لكي تدخل. بدت مرتبكة وهي تنقل خطواتها للداخل، وشعرتْ كأنها تخطو لعالمه بالفعل. هزَّتْ رأسها بمعني: أنها مجرد بداية.

لكن البداية انتهت سريعًا مع ظهور إيهاب المباغت من خلفها. حسنًا، لم يكن إيهاب بالضبط كما عهدته؛ فهاتين العينين الحمراوين، والشفتين الجافتين، وذلك اللهاث المحموم المتوحش، جعلها تتساءل: ماذا حدث له؟

***

الفصل الثاني

كان إيهاب محمومًا، وهو يرقد فراشه يهذي، بينما أمه تدفع الأغطية الثقيلة عليه، وأبوه لا تفتر شفتاه عن الدعاء.

"لم أر حالة كهذه من قبل؟"

قالها الطبيب حائرًا، وهو يغرس إبرة المحقن في عروقه. قلت متشككة:

"هذا الاحمرار في عينيه؛ هل هو طبيعي؟"

"من المفترض أن يزول بعد ساعات مع بقية الأعراض. على كل حال، أنا قريبٌ منكم، أي تطور مقلق يمكنكم الاتصال بي في أي وقت".

اصطحبه الأب حتى الباب، بينما تحدِّق هي إلى وجهه الشاحب الذابل.

كلمت والديها، وأخبرتهما عن الأمر. بدت أمها متذمرة بطبيعة الحال، لكن أبيها تفهم الأمر فورًا، بل وأخبرها أنه سيمرُّ عليهم صباحًا للاطمئنان على الشاب.

بعد منتصف الليل بدأت حالته تتحسن، أو هذا ما بدا لها؛ فقد اعتدل بحركة حادة في فراشه؛ مما جعلها تصحو من غفوتها بجواره.

"هيه. لقد استيقظت."

تلتف حوله:

"ماذا حدث؟"

ثم تنبه للمفارقة:

"وما الذي أتى بكِ لغرفتي؟"

قالت بلوم:

"ألا تتذكر مقابلتي أمام باب منزلكم؟"

ثم تذكرت بدورها؛ فقالت وهي تكشر عن أسنانها البيضاء:

"لماذا لم تأت لموعدنا يا أستاذ؟"

بدت عليه الحيرة، وهو يقطب جبينه، وبدا جليًّا أنه يحاول التذكر.

"لقد اتصل بي المدير طالبًا رؤيتي على وجه السرعة"

دمدمت بتشكك:

"لم أكن أعلم أنه يظلّ في العمل بعد موظفيه."

"إنه يفعلها أحيانًا. إنه يعيش وحيدًا"

"أكمل"

حاول أن يبتلع ريقه الجاف؛ فلم يفلح. صبَّتْ له كأسًا من العصير، وقدمته إليه؛ فارتشف منه رشفة، ورمقها بنظرة امتنان.

"إنه المدير. ثمة شيء حدث له. لقد انقضَّ على وغرس أظافره في قلبي."

"ماذا؟"

قال حائرًا:

"كأن أظافره تلك من الحديد؛ فقد اخترقت اللحم وشعرت بألم كاسح يكاد يقتلني."

"إنه رجل مجنون."

"لقد هربتُ منه بصعوبة، وهو يتتبعني عبر الممرات الخالية."

قالت بفزع:

"ما الذي حدث لهذه المدينة؛ لقد أصابها مسّ من الجنون."

"غدًا؛ سأقوم بعمل محضر فيه. هذا الرجل خطر على موظفيه."

قالت بغيظ:

"كنت أودُّ أن تكون أمي هنا؛ لتسمع هذا الكلام، حتى تكفَّ عن هوسها بخصوص زواجي من المدير."

نظر إليها في دهشة؛ فقالت معتذرة:

"دعك من كلامي هذا، ولتسترح. سأعد لك بعض الطعام."

نظرة أخرى ممتنة جعلتها سعيدة. قالت لنفسها:

"لابد أنه جُنّ."

لم تكن معتادة على الطبخ؛ مما جعلها تبحث عن أي طعام جاهز وتقوم بتجهيزه؛ فقد خجلت أن تقوم بإيقاظ والدي إيهاب؛ فلابد أنهما قد ناما من التعب والقلق على ابنهما.

عندما عادت للحجرة وجدتها خالية، والنافذة مفتوحة.

***

الفصل الثالث

اختفى إيهاب ولم يعد. كأنه لم يخطُ على الأرض أصلًا، ولم يزر قلبها ويقم فيه. كأنه ما وجد قطّ، لكنها تتذكر، ومع الذكريات كان يتجدد الألم. كانت تظنّ بأن الزمن يزيل الآلام بمكنسته.

حسنًا، إنه يفعل ذلك في بعض الأحيان، لكن بقايا الماضي كفيلة بأن تجعلها تتقلب على جمر ملتهب.

طبعًا أنكر المدير ما حدث، وقد وقف أمام الشرطة بصلف، وشعره الفضيِّ يلمع تحت أضواء الحجرة. كلامها أمام كلامه، وكما هو متوقع؛ فقد تم فصلها من الشركة.

هي لم تعد قادرة على المكوث فيها على كل حال؛ فكل ركن فيها يذكرها به.

لذا كانت دهشتها عارمة عندما وجدته أمام باب الشقة. كان والداها بالخارج. ولأنها فعلًا لا تطيق الحديث معه؛ فقد أغلقت الباب في وجهه، لكنه قال بسرعة:

"أتيتُ من أجل إيهاب. إنه بخير."

ارتجفتْ. أيمكن أن يكون ما يقوله هذا الوغد حقًا؟ فتحت الباب مرة أخرى؛ فدلف للداخل بثقة؛ مما جعلها تعضُّ شفتيها بغيظ.

"أين هو؟"

سألته حتى قبل أن يجلس.

قال مؤكدًا:

"بخير، لكني قبل أن أخبرك؛ أريد منكِ خدمة"

"أي خدمة هذه؟"

"ثمة معلومة أريدها"

"أي نوع من المعلومات؟"

"هل تعرفين الفردوس؟"

"أتقصد الجنة الأخروية؟"

"كلا؛ الفردوس الذي أقصده أرضيٌّ تمامًا"

قالت بتشكك، وكأنها تحادث مجنونًا يجب الحذر منه:

"عم تتحدث؟"

قال ذو الشعر الفضيٌّ:

"المصريون القدماء بعلومهم العظيمة قاموا بتأسيس مدينة مبهرة، تقع خلف جبل عباس. هذه المدينة يُقال بأنها وصلت الذروة في العلم والرقيٌّ المتحضر، حتى أنهم أسموها بـ"الفردوس".

"لم أسمع بهذا الهراء من قبل. وحتى لو افترضتُ جدلًا أنك في كامل قواك العقلية الآن، وصدقتك فيما تقول؛ فما الذي تحتاجه ما دمت تعرف مكانها بالضبط؟"

تنهد:

"بغضِّ النظر عن سخريتك المقيتة هذه؛ فإن المدينة ليست ظاهرة للعيان."

"بمعنى؟"

"لقد أحاطها أصحابها بغلاف كهرومغناطيسي خفي جعل المدنية لا تُرى."

"وكيف سأفيدك أنا في حلِّ هذه المشكلة؟"

"ثمة امرأة دخلت هذا المكان، وعادت منه أيضًا سالمة. للأسف هذه المرأة قد ماتت منذ سنوات. قام أحد اللصوص بقتلها أثناء محاولة سطو فاشلة على منزلها، وبالتالي لم يتبق إلا ابنتها الوحيدة: نهى."

"وهل تعرف ابنتها شيئًا؟"

"أغلب الظن لا. كل الدلائل تؤكد هذا، لكن هذا لا ينفي أنه ربما تكون هناك معلومة مخبأة بمكان ما في عقلها. لقد فتشنا المنزل جيدًا بالمناسبة، ولم نصل لشيء."

قالت بهدوء، وهي تسايره في جنونه:

"وكيف تتوقع أن أنتزع منها هذه المعلومة المخبأة؟"

قال بسرعة:

"قومي بمصادقتها. الفتاة تعيش في وحدة، ولديها يقين بأنها المسئولة عن موت أمها؛ لأنها لم تقدر على حمايتها. إنها كيان هشّ، ضعيف يمكنكِ اختراقه بسهولة."

صرختْ فيه:

"من تظنني؟"

واصل، وكأنه لم يسمعها:

"قومي بجمع معلومات كفاية عنها، ثم تعرفي عليها. حاولي أن تعرفي منها إن كانت تعلم شيئًا عن هذه المدينة الخفية أم لا."

كررت:

"من تظنني؟"

قال بعد لحظة صمت:

"أنا أعرفكِ جيدًا، وأعرف السرّ الذي تخفينه عن والديكِ."

تمتمت بحذر:

"السرّ؟"

أومأ برأسه. ابتسمت ببرود:

"لابد أن لوثة الجنون التي تعبث بعقلك جعلتك تخلط بيني وبين أحد آخر."

ردّ بذات البرود:

"حقًا؟"

ثم استرخي في مقعده، وقال:

"فلننتظر قدوم أبويكِ، ولنر."

بدت متوترة. ثم قال بخفوت:

"أنت تعرف مكان إيهاب بالفعل. أليس كذلك؟"

أومأ برأسه مبتسمًا.

"فليكن، سأنفذ ما تريده."

***

الفصل الرابع

كانت نهى تتحدث أمامها بتدفق، وقد قام العقار بفعله معها؛ فبدت كما لو كانت مُغيَّبة عن الواقع. راحت تسجل كل شيء يصدر منها في ذهنها. فجأة شعرتْ بوجود أحدهم معها. قامت بالبحث في البيت جيدًا، لكنها لم تجد أحدًا. هزَّت رأسها، وألقت نظرة على الفتاة، وقالت مشفقة:

"سامحيني يا نهى."

ثم غادرت المنزل. لكن على بعد أمتار راح ذلك الهاجس ينخسها بقوة. عادت للبيت بسرعة، وهناك كانت نهى راقدة على الأرض، والدم يسيل منها من ثقب قبيح ببطنها.

أخرجت هاتفها المحمول، وطلبتْ رقم الإسعاف. قالت بصوت هلع:

"أرجوكم أرسلوا سيارة إسعاف إلى هذا العنوان بسرعة."

وذكرت عنوان نهى، ثم نظرت في ساعتها. لابد أن أمامهم نصف ساعة على الأكثر حتى يصلوا. راحت تقوم بتطبيبها، وتضميد جراحها بمهارة، وهي تتأمل وجهها الشاحب من كثرة الدم النازف. دمدمت بضيق:

"هل قمتِ بإيذاء نفسك. لم أكن أعلم أن العقار سيفعل هذا بكِ."

ثم انتبهتْ أن السكين غير موجودة بالقرب منها؛ بل كان على بعد أمتار من الفتاة الجريحة.

"أري أنكِ صرتِ مرهفة القلب."

التفتت بسرعة؛ لتجد الرجل ذي الشعر الفضيِّ يدخل المكان بهدوء، وهو يحرِّك قدميه بشكل منغَّم، وكأنه راقص بارع.

"أنت."

"أنا."

قالت بدهشة:

"لكن لماذا؟"

"سأحتاجها عما قريب، ولكي آخذ منها ما أريده، لابد أن تكون على حافة الموت."

الحقيقة أنها لم تنتظر كثيرًا؛ لتسمع فمه ينطق بالأكاذيب؛ فقد وثبتْ إليه، وغرست ذات السكين في قلبه، وقالت بصوت خافت:

"ما كان لك أن تأتي لبيتي مهددًا يا هذا."

شهق بقوة؛ فتراجعت للخلف، وهو يسقط أرضًا، ويشخب دمًا هو الآخر بجوار جسد نهى.

هزَّت رأسها:

"يا لها من عدالة شعرية. من قتل يُقتل."

وسحبت جثة الرجل ذي الشعر الفضيِّ، وقالت بضيق، بدا واضحًا في لهاثها:

"ما كان لك أن تدخل بيتي مهددًا بكشف سريٍّ أيها الأحمق."

ثم توقفت مع مرآي ذلك الشيء المدهش الذي يحدث أمام عينيها:

فمن مكان الطعنة راح دم أسود اللون يتدفق ببطء إلى الخارج. قربت عينيها من الثقب أكثر، والدم يزيد في تدفقه. هنا قامت بشقّ دائرة في موضع القلب، ودفعت بأصابعها للداخل، ثم راحت تنظر؛ لتجد قلبًا أسود.

حدَّقت إلى وجهه، وتمتمت:

"من أنت؟"

تعالى صوت سيارة الإسعاف، وهنا أمسكتْ بالجثة، وألقتها من النافذة وهي تلهث. جميل أن تصل سيارة الإسعاف بسرعة. لابد أنهم متوترون بشدة؛ بسبب الجنون الذي يسري كوحش غير مرئي في شوارع المدينة وبيوتها.

قامت بالخروج من النافذة بحذر، وهي تسير على الإفريز الضيق، وهي تحاول أن تحدد مكان الجثة ببصرها وسط العتمة المدلهمة، حتى تقفز عليها؛ فتتحمل جزءًا من السقوط. خطر لها أنه سيكون مفيدًا لها وهو ميت أكثر من حياته.

أخذت نفسًا عميقًا، ووثبت.

لكنها لم تجد الجثة حيث ألقتها؛ فقط خيط من الدم لم يبن لونه، لكنها كانت تعرف أنه دم أسود لرجل كان ميتًا منذ لحظات.

نهضت، وكل عظمة في جسدها تصرخ من الألم.

نظرت حولها في توتر.

رأت سيارة الإسعاف تقف أمام منزل نهى، وهم يسرعون للداخل، ثم يخرجون سراعًا، حاملين الفتاة على محفة طبية. تنفست الصعداء. على الأقل هي اطمأنت الآن على الفتاة.

فجأة، أحاطت ذراع قوية بعنقها، ووجه ذو الشعر الفضيِّ يظهر شاحبًا ومخيفًا، وخطر لها أنه رجل ميت. كيف يمكن مقاتلة رجل ميت؟

دمدم غاضبًا:

"لقد خدعتني."

دمدمت بصوت مختنق هامس:

"أنت أيضًا خدعتني. إيهاب يعمل لصالحك. أليس كذلك؟"

"إيهاب موظف لديِّ بالفعل. لكن هذا لا يمنع أنني فوجئتُ بأن الفتاة التي يحبها هي أنتِ."

"هل أخبرته بحقيقتي؟"

ضحك:

"هل تظنين أنه الآن يكترث بكِ أصلًا. يبدو أنك لم تدركي الصورة الكاملة للأمر."

ضربته بكوعها في بطنه؛ فتراجع للخلف، ووثبت أرضًا على ظهرها، وهي تدفعه بساقها بقوة؛ ليسقط هذه المرة بعنف.

انقضت عليه:

"أخبرني: من أنت؟ من أنت؟"

هنا، غرس أصابعه في قلبها؛ فشهقتْ، وشعرت بأن روحها تنسل منها.

ثم عندما عادت الرؤية إليها، لم تجده.

ثم شعرت بذلك الخيط من الدم يخرج منها.

دم يميل للسواد.

***

الفصل الخامس

كانت آلامها تزداد بمرور الوقت.

اطمأنت على نهى بالمستشفى، بعد أن تحملت مصاريفها كاملة. بدأت تشعر بأن ثمة تغييرا في جسدها يحدث في كل ساعة تمرُّ عليها. الثقوب راحت تلتأم، لكن الألم بالداخل صار فظيعًا. كمْ مرة دخلت عليها أمها، وهي تصرخ ليلًا، ورفضت باستماتة زيارة أحد الأطباء. كانت تعرف بأن الأمر خارج حدود الطب البشري المعروف.

وعندما ارتفع رنين الهاتف ذات يوم، وكان الرقم محجوبًا، بدأت تخمن من المتصل.

"أنت."

"أنا."

"كنتُ أظنك قد قضيت نحبك. لقد قمت بطعنك في قلبك الأسود."

"وعما قريب قلبك سيغدو أسود أيضًا. وستصيرين معي على الرغم من أنفك."

"هل هو تهديد؟"

قال بسرعة:

"سيكون قرارك بالانضمام إلى اختياريًا. بل ستسعدين بفعل ذلك."

"أنت تحلم."

"بالمناسب قلبك كان معتمًا من قبل حتى أن ألوِّثه. أعتقد أنه لن يكون هناك فارق كبير."

"ألن تخبرني عن ماهيتك؟"

"أنا إنسان مثلك، أو على الأقل كنتُ هكذا في يوم من الأيام، قبل أن يتعرض جسدي لذلك الشيء."

"الشيء؟"

"إنه موضوع يطول الحديث عنه. فلنتقابل."

"وما الذي يجبرني على فعل هذا؟"

"أبواكِ في قبضتي."

انقبض قلبها، وهي تلتفت حولها. ثم ألقت بالهاتف على الأريكة وراحت تبحث عنهما.

"أمي. أبي. أمي. أبي. أين أنتما؟"

ثم أمسكتْ بالهاتف؛ ليقول لها بسرعة، وكأنه شعر بأنها عادت إليه:

"لا تضيعي وقتك بالدهشة والتهديد؛ فالوقت يمرّ. إليك العنوان. لا تتأخري."

***

كان اللقاء في الطابق العشرين من شركته. أمكنها أن ترى المدينة الغافية بأسفل؛ يحلق فوقها الضباب. سمعت خطوات وراءها؛ فنظرت؛ لتجد فتاة جميلة ذات شعر أحمر.

"اسمي سهام."

"تشرفنا"

قالتها ببرود. في نفس اللحظة التي ظهر فيها ذو الشعر الفضيِّ. كان شاحبًا، وساقاه تترنحان تحته، وهو يحاول التماسك. كان مختلفًا عن المرتين السابقتين؛ حيث كان قويًا، واثقًا من نفسه.

قالت بحيرة:

"ما تزال على قيد الحياة. كيف؟"

قال بحقد:

"لقد كلفني هذا ثروة. قلب إلكتروني كنتُ أعمل عليه منذ فترة طويلة، لكن بسببك اضطررتُ لاستخدامه مبكرًا."

"قلب إلكتروني؟"

قال، وقد استعاد بعض هدوءه:

"كل ما فعلته أنني زودته بقطرات من دمى، وقام هو بالاندماج مع أجهزة جسمي. لا تتخيلي عِظَمِ الألم الذي كنتُ أشعر به."

ثم قال بخبث، وهو يتفحص وجهها:

"ثم إن سؤالك هذا ليس في وقته. ليس ما كنتُ أتوقعه على الأقل."

"وما الذي كنت تتوقع مني أن أسأل عنه؟"

"والداكِ."

قالت ببرود:

"أعلم أنهما بخير؛ فأنت ستجعلني أطمأن عليهما بنفسي قبل أن أنفِّذ لك أي شيء."

"اتفقنا."

ثم مال نحوها:

"لكن فلتعلمي أن ما أطلبه منكِ سوف يجعلك تغيبين عن هذا الوجود الواقعي؛ لتدخلي عالم آخر من صنع الكمبيوتر. عالم ستصدقين تمامًا أنه موجود."

"عما تتحدث بالضبط؟"

***

بعد ان اطمأنت على والديها، جلست بجوار نهى الغارقة في غيبوبة عميقة، وبعد أن تم توصيل الأسلاك والأقطاب بين جسديهما، قال ذو الشعر الفضيِّ:

"أرجو أن تتكلل علاقتكما في ذلك العالم الافتراضي بصداقة حقيقية."

قالها بسخرية. رمقته بكراهية، ثم قالت:

"احرص على حياة والديِّ؛ وإن لم تفعل؛ فلن تجد جُحرًا في العالم يحميك مني."

***

عندما وثبتْ من النافذة للداخل، وطعنت سيد القلوب المعتمة، لم تكن مهتمة حتى برؤيته، وهو يسقط أمامها.

كان الحبل يلتف حول وسطها، وهي تثب نحو نهى، وتحيطها بذراعيها، وسط مقاومة هذه الأخيرة، وثورتها.

"اتركيني أيتها المجنونة. اتركيني."

ضربتها على مؤخرة عنقها؛ ففقدت الوعي على الفور، ثم وثبت بجسد الفتاة النائمة قسرًا، وحلقت في الهواء للحظات قبل أن تهوى لأسفل.

كانت تعلم بأن سيد القلوب المعتمة ما زال حيًا، وخمنت أنه من الممكن أن يكون هو ذو الشعر الفضيِّ ذاته.

تتذكر اللحظات التي قبض فيها هؤلاء على نهى، وهروبها واختفائها، وهي تخشي أن يعثر عليها أحد.

عادت للمنزل، ولم تجد أحدًا فيه من والديها. من الجميل أن تكون عائلتها في ذلك الكابوس المتقن هي نفس عائلتها في العالم الواقعي، والذي صار قطعة من الجحيم.

ترى: أين ذهبا؟ هل هما على قيد الحياة؟ بخير؟

كانت تعلم بأن ثمة مهمة واحدة عليها إنجازها بما أنها غدت الوحيدة التي تعرف مكان الفردوس المفقود.

***

الفصل السادس

عندما أفاقت نهى وجدت نفسها على قمة ثلجية لجبل ما، وبدا المكان مألوفًا لها بشكل ما. الصقيع هائل، والبرودة ناخرة للعظام الواهنة، وقلبها لا يكف عن الركض، ووجه هدير الذي يملأ مجال بصرها يصيبها بالذعر.

"أين أنا؟"

سألتْ بصوت خائف. أجابتها هدير، وهي تفحص المكان بعينيها بحثًا عن شيء ما:

"قمة جبل عباس"

"وكيف وصلنا لهنا؟"

هزَّت كتفيها:

"قمتُ باستعارة واحدة من طائرات الهليكوبتر."

"ماذا؟"

"كما سمعتِ؛ فوسط هذه الفوضى التي تعمّ البلاد يمكن للمرء أن يفعل أي شيء."

قالت بحقد:

"يبدو أنه لا يوجد حدود لما يمكنكِ أن تفعلينه، بعد أن قمتِ بقتلي. تقومين بقتلي بعد أن أدخلتكِ بيتي واعتبرتك صديقتي."

"هيه. أنا لم أقتلك. إنما ذلك الوغد هو من فعلها."

"وهل تتوقعين أن أصدقكِ؟"

"هذا شأنك. لكن لتعلمي أنني سبيل نجاتكِ الوحيد هنا."

"إني أفضِّل الموت على أن أضع يدي في يدك."

"وهل كانت أمكِ ترغب في أن تفعلي هذا؟"

"ماذا؟ أمي. وما شأنكِ بأمي؟"

قالت بخبث:

"ألا يبدو لكِ المكان مألوفًا؟"

أدارت عينيها في المكان الموحش. من حسن الحظ أنها ترتدي معطفًا ثقيلًا. لكن مهلًا؛ فمن أين أتت هي بذلك المعطف؟ لابد أن هدير هي من ألبستها إياه. هل قامت "باستعارته" هو الآخر؟

كان هناك كوخ مستطيل من الخشب على حافة الجبل، وكان له بابان. قالت هدير، وهي تقرِّب وجهها من الفتاة المذعورة:

"اسمعيني جيدًا يا نهى ولا تقاطعيني. لقد كانت أمك ترسل رسائلها إليكِ من خلال الحكايات. كانت تريد أن تصبحي سعيدة حتى بعد رحيلها. كل ما عليكِ فعله الآن هو أن تثقي في حكايات أمكِ، تؤمني بها، تلتمسي منها سبل النجاة من عالمنا الكئيب الموجع."

"لا أفهم."

"من هذه اللحظة سننفصل يا صديقتي العزيزة؛ كلٌ له قراره وعالمه."

"صديقتكِ العزيزة؟"

"أنتِ كذلك بالفعل، صدِّقي أو لا تصدِّقي."

"بالطبع لن تصدق."

صوته السمج، العابث، العميق يتردد، وهو يظهر أمامها من خلف تلة ثلجية قريبة. ذو الشعر الفضيِّ بشحمه ولحمه، وكان يقف هناك شامخًا، يمسك بسيف حاد، يلمع نصله في الشمس.

قال بهدوء:

"أنتِ تعرفين أنك ستخسرين في القتال حتمًا. انسي انتصاراتك السابقة في عالمك السفلى الغامض، وتذكري جيدًا أمام من تقفين. كل ما أريده فقط أن أترك هذا العالم، وأدخل الفردوس."

"تدخل الفردوس بعد أن أفسدت هذا العالم!"

"هذا العالم أفسده أصحابه وساكنوه."

رمقته بنظرة مليئة بالمقت، ثم قالت وهي تنظر إلى نهى، وتربت على كتفها:

"لا تنسي ما أخبرتك به. نفذيه بالحرف."

ثم عادت ببصرها إلى ذي الشعر الفضيِّ، وقالت ساخرة:

"أنت مخطئ يا هذا؛ فأنا لا أبحث عن انتصار هذه المرة."

بدا الغباء على وجهه لثانية؛ وهنا تحركت نحوه بسرعة غير عادية، وهي تحيط جسده بذراعيها، وهمست في أذنه:

"فقلبي المعتم أوشك على الاكتمال، ولن يروق لي أن أصير واحدة من خدمك."

ودفعته للفراغ، وهي متشبثة به؛ ليسقطا معًا.

***

بعد نصف ساعة من البكاء، وحيث تجمدت الدموع على وجنتيها، نهضت نهى، واتجهت للكوخ. الحقيقة أنها لم تجرؤ على النظر الى أسفل لتشاهد جثة هدير. لقد راحت أحداث وتفاصيل الصداقة الافتراضية بينهما تتدفق لذهنها، وتختلط بالواقع؛ ولتبدأ في التذكر.

هل الواقعي والمفترض يهمّ حقًا إذا كانت المشاعر حقيقية؟

دخلت الكوخ، وهي تتذكر قصة أمها، وقلبها يخفق. هل ستجد الأسد/ الحكيم جالسًا على الأرض ينتظرها. هل سيقوم بمداواة تعاستها المزمنة؟

لكن الكوخ كان خاليًا، وهي تعبره بحذر، متجهة للباب الآخر الذي كان يطل على الهاوية الأخرى.

وقفتْ على حافة الهاوية. ضوء الشمس يؤذي بصرها. تحاول أن تغطي وجها بيديها. تتذكر أمها، وحكاياتها، ونصيحتها بأن تتبع النور مهما كان. هل هذه هي رسالتها؟

من أجل أن تدخل الفردوس عليها أن تتبع النور.

تذكرت أمها، هدير، عالميها: الواقعي والافتراضي، أحلامها، الألم الكاسح الذي يجري مع عروقها مجرى الدم.

ثم راحت تتذكر كلام الحكيم/ الأسد:

"من أجل أن توصل حبل قلبك بمن تحب، لابد أن تقطع كل أمل فيه."

"لو لم تفعل ما فعلته ما كنت ستبقي أنت. هناك دفقة من الحياة ما زالت موجودة، برغم العتمة، والوحشة، والوحدة المجنونة. دفقة من الحياة من الممكن أن تعيد جسدك من جديد، لكن هذا ليس هنا. أنت تحتاج لأن تذهب إلى الفردوس؛ حيث تلتأم أجساد وقلوب المحطمين أمثالك."

" هل أنت موافق على الدخول لذلك الفردوس؟"

"ستسقط من علٍ، سيواجه جسدك المحتضر آلام السقوط والرهبة والخوف المجنون. هل أنت مستعد لدفع هذا الثمن من أجل عبور الحاجز المقدس؟"

راحت تتكون ابتسامة مرتبكة خائفة مضطربة على شفتيها، وقد عرفت أخيرًا ما هو المطلوب منها. واجهت الشمس بوجهها، تحملت الألم الحارق، ثم همست:

"أمي. هدير."

ثم ألقت بنفسها!

***

السكون يغلِّف الهاوية بأسفل. ذو الشعر الفضيِّ يحدِّق إلى السماء، وقد انغرس وتد صخري في ظهره؛ فبرز من بطنه.

فجأة، برزت يد متخشبة من تحت طبقات الثلج. بدأت تحدث حركة اهتزازية بطيئة، سرعان ما راحت تشتد، ثم ظهرت هدير، وهي ترتجف. وجهها يقترب من الأزرق؛ زرقة الموت، وزرقة انتشار العروق السوداء في جسدها؛ علامة على قرب اكتمال سواد قلبها.

الألم رهيب، لا يطاق، ينهش بداخلها، يزأر ويصرخ، يكاد يفقدها وعيها، لكنها تقاوم.

ألقت نظرة على قمة الجبل، وهي تتساءل عن مصير نهى، وهل فهمت رسائل أمها أخيرًا؟

وكالعادة، تحركت بسرعة، دون أن تضيِّع وقتها في التساؤلات. أخرجت سكينها ملتف حول ساقها، وشقَّتْ صدر ذي الشعر الفضيِّ بقوة وبأس، وهي تستنفر كل طاقتها لكيلا تسقط فاقدة لوعيها.

نزعتْ القلب الإلكتروني من صدره بقوة، وتجاهلت الدماء السوداء المنبثقة من جسده كنافورة.

على الأقل هي تعرف بأنه فقد بشريته منذ زمن طويل. حدَّقت إلى القلب في يدها، ثم توقفت عند مربع صغير شفاف يحتوي على قطرات من دمه.

أخرجت المربع، أفرغت ما فيه، ثم غمست يدها في جرح من جروحها المتعددة، والتي تنزف بغزارة برغم البرودة المميتة.

لو ظلت هكذا؛ فأحدهما سيسبق؛ لكي تلقي حتفها.

وضعت عينة من دمها في المربع، ثم أخذت نفسها عميقًا، قبل أن تدفع السكين في صدرها بحركة دائرية سريعة.

أطلقت صرخة هائلة تردد صداها في الأرجاء، ونزعت قلبها في حركة أخيرة، وقبل أن تفقد وعيها/ تموت، دست القلب في التجويف القبيح، حيث لا تكفّ الدماء عن التدفق.

ثم سكنت حركتها.

وبعد يومين، استيقظتْ هدير.

شعرتْ بأنها قد ولدت من جديد. ساقاها يتلويان تحتها، تحاول السيطرة عليهما دون جدوى.

جثة ذي الشعر الفضيَّ كستها الثلوج والدماء، ونظرته الذاهلة للسماء ما زالت كما هي. شمس الشتاء تشرق بصعوبة من بين السحب.

تتذكر رقصة نهى. حان الوقت لكي تتعلمها؛ فهي بحاجة إليها.

تتجه خطوة للأمام. خطوتان للخلف. يمينًا. يسارًا. تواصل رقصتها الوليدة.

تذُّق الموسيقى في ذهنها، تنبعث من كلا العالمين؛ الواقعي والافتراضي، تنظر لأعلى، للشمس البازغة في الأفق.

****

قائمة روايات الكاتب
اضغط هنا

الموقع الرسمي للكاتب

www.areffikry.net

صفحة الرواية على الجودريدز

https://www.goodreads.com/book/show/17876454

انضم لمجموعة الكاتب على الجودريدز؛ لمتابعة كل جديد

https://www.goodreads.com/group/show/160562

الصفحة الرسمية للكاتب على الفيسبوك

https://www.facebook.com/areffikry

تويتر

https://twitter.com/ArefFikry

انستجرام

https://instagram.com/areffikry